أعلام العرب
٩١

عمرو بن العاص

بقلم

الدكتور نظمي لوقا

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

١٩٧٠

الى السائرين فى الظلمة ، ومن يلوح لهم ..

ـ من أنفسهم ! ـ

فجر جديد

وأيضاً الى :

من يقدسون الحق

ويغارون عليه

ولا يعدلون به شيئاً ...

يوليو ١٩٦٩

مصر الجديدة

توطئة

عدة رجال فى رجل واحد :

عمرو ابن ابيه

عمرو ابن النابغة

عمرو الجاهلى جواب الآفاق

عمرو سفير قريش وعدو الاسلام ..

عمرو المقر بالاسلام

عمرو محطم الأصنام

عمرو القائد

عمرو فاتح فلسطين

عمرو فاتح مصر

عمرو مؤسس الدولة

عمرو المخلوع

عمرو فى معمعان الفتنة

عمرو صاحب خدعة التحكيم

عمرو صنو معاوية فى جاه الدنيا

مستويات شتى من الشخصية البشرية الواحدة ، يكاد يكفى كل مستوى منها لحياة رجل بأكملها . واجتماعها كلها فى حياة رجل واحد بعينه أمر يدعو للدهشة فى حد ذاته ، وان كان مرد هذه الدهشة الى ضخامة من حيث الكم ـ ان صح هذا التعبير ـ لأنه يوجز فى فترة عمر رجل واحد ما كان ليصلح لجملة أعمار ، أو لجملة رجال .

لكن هذه الدهشة ـ على جسامتها ـ تتضاءل حتى لتكاد تتوارى بجانب دهشة من نوع آخر .. وتلك هى الدهشة التى يثيرها النظر فى كنه ، هذه المستويات المختلفة من مجالات العمل والسلوك .

فاذا اختلاف يصل فى كثير من الأحوال الى درجة التناقض الفادح ـ ولا أريد أن أقول الفاضح !.

فكيف يمكن فى نظر « العقل الفاحص » أن يلم امرؤ على شعث أطراف تلك الخلال كلها فى شخصية متسقة لم تظهر عليها بادرة من بوادر الصراع أو الفصام ؟

كيف يصح ـ فى نظر العقل الفاحص ـ أن يكون عمرو المجاهد المؤمن هو عمرو الذى يسقط من اعتباره كل وزن لمصلحة

العقيدة ومستقبل نقائها وصلاح أمرها كي ـ ينضج لنفسه على نار الفتنة التى أوضع فيها مغنما من جاه الدنيا وسلطانها مهما كان جسيما ..؟

هذا على الأقل حقيق أن يدعو للدهشة التى ليست مثلها دهشة ! أما التناقض الآخر ، اعنى انقلاب الكافر عدو العقيدة الى مؤمن بها مجاهد فى سبيلها ، فليس مما يثير دهشة العقل الفاحص ، لأنه انقلاب فى الاتجاه الطبيعى الذى سلكه كل مؤمن بعد أن كان يرفض الايمان ويلج فى المكابرة والعناد .. فما أشد ما صلح ايمان عمر ابن الخطاب بعد أن كان جبارا عنيدا فى كفره وعدائه للاسلام والمسلمين ! وما أشد ما صلح ايمان خالد بن الوليد ـ سيف الاسلام المسلول ـ وهو بطل قريش يوم أحد ، وما أدراك ما يوم أحد ..! وغيرهما كثيرون تغنى فيهم الاشارة عن الاحصاء .

ذلك ان الايمان طور طبيعى بعد طور الكفر .

***

عدة رجال فى رجل واحد

لا يكاد يلم شتاتهم المتباين الى حد التناقض شىء من الأشياء ، ومع هذا جمعهم فى كيان واحد ذلك الرجل الذى حقق من كبار الأعمال ما يجعله جديرا بمكانة بارزة بين أعلام العرب .

أليس قد غير وجه الدولة العربية ، ومن ثم غير وجه الحضارة والتاريخ الى يومنا هذا ، اذ هو صاحب الفكرة الثاقبة في فتح مصر ، ثم هو فاتحها فعلا بما يشبه المعجزة العسكرية ؟

أليس قد غير وجه التاريخ مرة أخرى تغييرا حاسما في الدولة العربية الفتية حين انتشل بالرأى الحاذق والحيلة البارعة مصير معاوية من مهاوى الهزيمة ، وأرسى خطاه على طريق النصر ، فأحدث الحدث الذى لا يدانيه حدث فى تاريخ الاسلام والعرب : اذ تحولت الخلافة الديمقراطية الجمهورية الصائرة الى الاشتراكية فصارت ملكا عضوضا يتوارثه آل بيت واحد ، لا مكان فيه للديمقراطية ، وانما هو الاستبداد وتسلط الفرد ، ونظام المجتمع فيه أدنى الى حكومة الثراة والسراة والطبقية والعصبية منها الى حكومة التقريب بين الطبقات ، والتكافل الاجتماعى ، واعتبار الناس كافة سواسية كأسنان المشط ...!

أليس عمرو هو الذى يرجع اليه الأثر الأكبر فى «اجهاض» هذا الحلم الرفيع من أحلام البشرية ، حتى أسقط فى أيدى الطامحين لقيام دولة الحق والعدل والمساواة ، وقالوا : الآن وداعا لكل هذا !

بهذا الأثر الضخم فى ذاك ونقيضه : فى اقامة صرح دولة العدل وفى تقويض هذه الدولة ! وبغير هذا الأثر من الآثار فى

معركة قيام الاسلام يستحق عمرو بن العاص أن يكتب عنه الكاتبون .

ولكن أيستحق عمرو بن العاص ان يكتب عنه الكاتبون بسبب هذه الآثار فحسب ، وبسبب هذه الاحداث وحدها ؟

اللهم لا !

ان الاحداث قد تكون جليلة الخطر فى أطوار الأمم والدول والحضارات .

وهى بهذا جديرة بالدراسة والبحث والتمحيص توسلا الى التعلم والاعتبار . ولكن دراسة أطوار النفس الانسانية فى ضوء الأحداث الكبرى أمر لا يقل عن دراسة الأحداث فى ذاتها أهمية وخطرا ـ بل تربو عليها فى ذلك ايما ارباء .

لا تكتسب الأحداث وزنها الحقيقى الا لأنها متصلة بحياة الناس ومصائرهم . فالانسان ـ الانسان الفرد والانسان المجتمع والانسان النوع ـ هو مقياس كل جليل من الأمور والحوادث وغايتها القصوى فى الوقت نفسه . ومن أجل الانسان ـ وفى ضوء فهم تكوينه وأسرار نفسه وسلوكه ـ يجب أن يكون اهتمام الدارسين الأكبر بأحداث التاريخ .

وعمرو بن العاص جدير بالدراسة من هذا المستوى ، وبهذا

الغرض مثلما هو جدير بالدراسة على مستوى الأحداث سواء بسواء • بل هاتان الدراستان تتكاملان • ولكن بحيث تكون دراسة الحوادث طريقا الى دراسة الانسان ، والكشف عن غوامض هذه التناقضات المذهلة فى حياة عمرو •

ومنذ قليل تكلمنا عن نظر « العقل الفاحص » فى هذا الأمر وذاك • ولم تكن تلك كلمة عابرة جرى بها القلم حيثما اتفق ، وانما نحن عنيناها عن عمد ، فنحن لا نؤمن بجدوى الكتابة عن الاعلام والأفذاذ بقصد التنزيه أو التأليه• وانما نؤمن بالكتابة بقصد الفحص الذى يؤله الحق ولا يؤله الأشخاص • وبالنزاهة التى لا تفتعل العصمة للبشر • وما خير قربان يرفع الى صورة موهومة القدسية ، ولن يستطيع أحد أن يكون بالاقتداء بها قديسا معصوما ؟ انما الخير كل الخير فى التعرف النزيه على مواطن الضعف ومواطن القوة بأمانة ، ولست تعرف أسباب الصحة بدراسة شىء كدراسة حالات المرض والاعتلال • وكذلك طب النفوس : دعامته الكشف عن خصائص العلل والأدواء توسلا الى ما ينفع فى علاج مثيلاتها من ألوان الدواء • ولئن كان قد ذهب الغابرون بخيرهم وشرهم ، فالمراد بكل دراسة غير عقيم للغابرين ان تلتمس الخير للناس فى يومهم وغدهم ، وما يكون به صلاح نفوسهم بتوقى مواطن الزلل وتجنب أسبابها ومزالقها • ولكن أهذا كل شىء ؟

اللهم لا •••؟

فلئن كانت أحداث حياة عمرو بن العاص الجسام تصلح منفذا الى مكنونات نفسه وتكوينه ، فهى كذلك ـ بهـذا المعنى وفى هذا الاطار ـ نافذة على عصره كله لا لأنه كان من أكبر المحددين لمسار الأمور وما انتهت اليه فى الحقبة الأخيرة من عمره الطويل وحسب ، بل لأنه أيضا ما كان ليحدث كل هذا الأثر لو لم يكن عصره على الصـورة التى كان عليهـا ! فما خطر ظهـور البترول قبل عصر المحركات التى تدار بهذا النوع من الوقود ؟ انه لحرى لولا هذا أن يذهب هدرا ان لم يعد ظهوره من الكوارث التى يضيق بها الناس .. أما والعصر موات فهو بركة ونعمة تحمد عليها السماء ! فلولا ان الزمن كان مهيأ لعمرو أن ينحو هذا المنحى لما استطاع ان يحقق بمنحاه كل ما حققه برمته . فنجـاح عمـرو مؤشر كبير الى روح العصر الذى ظهر فيه . وتقلب الأحوال فى هذا العصر يفسر الكثير من تقلب المواقف فى حياة عمـرو أو تمكنـه من ذلك التقلب على الأقل . فمثله يحسن اكتشاف اتجاه التيار ، ويستخدمه مركبا الى اغراضه الجسام ..

ولقد أوشكت أن أقول اغراضـه الكبار ، لولا ما بين الكبير والجسيم من فرق .. فقد يكون كل كبير من الغاية جسيما ، ولكن ليس كل جسيم من الغايات كبيرا ...

ومن هنا قلنا ان عمرو يلخص روح عصره الى حد بعيد ، وحياته تصلح بهذا الاعتبار نافذة على عصره ...

أو بهذا كله يكون عمرو من أحق الناس بالدراسة • دراسة العقل الفاحص الذى لا يوارب ، ولا يحابى •

وبهدى من هذا النهج نكتب اليوم هذه الصفحات عن عمـرو ابن العاص • وعند هذه الغاية يكون نصيبنا من التوفيق الذى عسى ان يكون لنا جانب من تحقيقه •

ولتأصيل هذه المبادىء والقيم يتجه جل مسعانا من تحبير هذه السطور •

وسلام على الصادقين •

مصر الجديدة دكتور نظمى لوقا

وأين له عن ذلك؟

... والغصن من حيث يخرج !

ابن جريج

نحن ابناء آبائنا وامهاتنا .

هذا شأن سائر الكائنات الحية ، لا يستثنى من ذلك النبات ! والغصن من حيث يخرج كما يقول ابو الحسن على بن العباس بن جريج . ثم نحن بعد ذلك وآباؤنا وأمهاتنا أبناء بيئـة لهـا أبعادها الجغرافية والتاريخية والاجتماعية .

همنا الأول اذن ان نعرف من ابو عمرو بن العاص، ومن أمه.

أبوه العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سهم بن عمرو ابن هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب . وهو زعيم بنى سهم ، وبنو سهم من أبرز بطون قبيلة قريش . وبطون قريش ذات الشأن يومئذ ـ كما يقول الكلبى ـ عشرة بطون : بنو هاشم . وبنو أميه. وبنو نوفل . وبنو عبد الدار . وبنو أسد . وبنو مخزوم . وبنو عدى . وبنو جمح . وبنو سهم .

وكانت للعاص منزلة خاصة بين أقطاب قريش بما اجتمع له من قوة الشخصية ، والاعتداد بالنفس ، واتساع التجارة ، وبذخ الجاه ، وكثرة الأموال .

وان كانت بعض النصوص تدل على أنه اشتغل فى بعض مراحل حياته بالجزارة ، فمما رواه ابن منظور أن رجلا من تجار الروم قدم بحلة من لباس قيصر على أهل مكة فساومه عمارة ابن الوليد فأبى الرومى الا ان يبيعها بمائة بعير ، فاستغلاها . واشتراها عمرو بن العاص بمائة بعير وأقبل يخطر بها حتى انتهى الى بنى مخزوم ، وفخر على عمارة باقتداره على شراء الثوب الغالى الذى لم يطق ثمنه عمارة ، فهجا عمارة عمرو بن العاص بشعر جاء فيه :

وكان أبوك جزارا وكانت   له فأس وقدر من حديد

ومهما يكن من شىء فقد حاز الثراء الطائل والمكانة المرموقة، فموقفه الطبيعى اذن بحكم السيادة والمنعة والجاه ، أو بحكم الطبقية ان شئنا استعارة لغة شائعة على ألسنة ابناء العصر أن يقف موقف المعاند من دعوى تنادى بالتسوية بين الناس كأسنان المشط ، وان لا فضل لقرشى على أعجمى الا بالتقوى ... شأن العاص بن وائل فى ذلك شأن أبى سفيان بن حرب بن أمية . وشأن سائر السادة فى الذؤابة من الشرف والنفوذ فى سائر تلك البطون ، بحيث كادت هذه الدعوة الجديدة تقسم الناس فريقين : فريق الواجدين أو

المحظوظين ، وفريق الفاقدين أو المستضعفين • وهل من الطبيعى الا ينافح ذو الملك والسلطان عن نظام يقوم عليه ملكه وسلطانه وامتيازه ؟ ولم يتنزه عن تلك القاعدة أحد من تلك الذؤابة الا صاحب الدعوة الجديدة نفسه • ولكنه الاستثناء الذى يقوم حجة على تفرد صاحبه بخصيصة لا تنسى لسواه • وهو فى الوقت عينه استثناء يحرج صدور أبناء طبقته وزعمائها غاية الحرج ، ويدفعهم الى اللدد فى الخصومة واللجاجة فى المكابرة والكفر •

لهذا كان طبيعيا أن يعادى العاص بن وائل ، والد عمرو ، دعوة الاسلام ورسوله ويحاربهما فى مقدمة من انبروا لهما من المعاندين المستكبرين • وهو موقف تمليه « المكانة » فى القبيلة ، ويمليه الحرص على المصلحة الشخصية ، وتمليه الغيرة على النفوذ المستمد من نظام المجتمع فى الجاهلية •

وما كان العاص بن وائل يرضى لنفسه ـ وهو المعتد بها فى عنجهية ـ ان يكون له فى ذلك المضمار موضع دون الصدارة ، شأنه فى كل أمر يخص القبيلة فى حرب أو سياسة أو تجارة • فناهيك ودعوة محمد تتهدد هذا كله ، وتعتبر فى نظر أمثاله تمرداً وخروجاً على الطاعة يستوجب الردع ، ودعوة هدامة تستحق القضاء عليها بكل الوسائل •

تغير غريب اذن ان يتفنن العاص بن وائل فى حرب محمد• ومن أفانينه تلك ما رواه ابن اسحق :

كان خباب بن الأرت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قينا بمكة بعمل السيوف ، وكان قد باع العاص بن وائل سيوفا عملها له ، حتى كان عليه مال ، فجاءه يتقاضاه فقال له يا خباب ! أليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذى أنت على دينه أن فى الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم ! قال خباب : بلى ! قال فانظرنى الى يوم القيامة يا خباب حتى ارجع الى تلك الدار ، فأقضيك هناك حقك ، فوالله لا تكون أنت وصاحبك يا خباب آثر عند الله منى ولا أعظم حظا فى ذلك . فأنزل الله تعالى فيه : « أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا ، أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا ؟ كلا ! سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا ! ونرثه ما يقول ويأتينا فردا ! » .

ثم هو أحد أربعة من أقطاب الكفر بقريش أنزل الله تعالى فيهم : « قل يأيها الكافرون ! لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين ! » .

ثم هو أحد خمسة رجال قالوا للنبى : لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ، ويرى معك ! فأنزلت فيهم الآية : « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ... » .

وهو أحد مشاهير المستهزئين بالنبى الذين قال فيهم القرآن :

« فاصدع بما تؤمر • وأعرض عن المشركين• انا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون » !

ومن أشهر ما يرويه المؤرخون ـ وأهمهم ابن اسحق ـ انه المعنى فى القرآن الكريم بما جاء فى سورة الكوثر : « ان شانئك هو الأبتر » •• ذلك أن الرسول ثكل فى مكة ولديه من خديجة بنت خويلد : القاسم ـ وبه كان يكنى الرسول فيقال له يا أبا القاسم ـ وعبد الله ، فلم يبق من نسله ذكور ، فراح العاص بن وائل ينبز الرسول ويشمت به قائلا : انما هو أبتر (أى لا عقب له يخلد ذكره ويحفظ اسمه) يريد أنه لو كان أثيراً على ربه لما حرمه من نعمة العقب التى يحرص عليها كل عربى •

ويختلف الرواة فى وفاة العاص ـ قيل مات قبل هجرة الرسول من مكة ، وقيل مات بعد تلك الهجرة بقليل • وهو على عناده واستكباره ، وقد نيف على الثمانين •••

ويقول كثير من المؤلفين القدامى (منهم الميدانى وابن الكلبى) ان بنى سهم كانت لهم « الحكومة » والحبوس الموقوفة على الآلهة ••

هذا اذن أب رفيع العماد ، وبيت وطيد المكانة ، فلا غرو أن يكون عمرو شديد الاعتداد بأبيه وعشيرته• والعرب ـ ولاسيما فى الجاهلية أهل اعتزاز وتفاخر بالأنساب والأحساب ـ حتى لقد تتفاخر بطون القبيلة الواحدة أيها أكثر سادة وأكثر فرسانا، وأكثر أجوادا،

وأكثر شعراء • فلن يكون اعتداد عمرو بأبيه اذن خروجا على القاعدة الجارية فى زمانه ومكانه •

ولكن عمرو أكان لديه باعث خاص للتزيد فى هذا الاعتداد بأبيه • باعث يسوقنا سوقا طبيعيا بعد الحديث عن أبيه الى الحديث عن أمه •••

فمن أمه ؟

أجمع الرواة تقريبا على أنها سلمى بنت حرملة ، وكنيتها النابغة ، من بنى عنزة (بفتح العين والنون) من قبيلة أسد ابن ربيعة • وقد انعقد الاجماع على أنها كانت سبيا ، سباها بعض فتاك الاعراب وباعوها فى سوق الرقيق بمكة •••

وطبيعى أنه جرى عليها ما يجرى عادة للاماء فى مدينة كمكة على عهد الجاهلية• وأهون تصوير لذلك الذى كان من أمرها ما ورد على لسان ابنها عمرو نفسه ـ كما ذكره ابو عمرو يوسف بن عبدالله ابن محمد البرقى فى كتابه « الاستيعاب فى معرفة الأصحاب » قال: « ذكروا انه جعل لرجل الف درهم على أن يسأل الأمير عمرو ابن العاص وهو على المنبر عن أمه ، فسأله نريد أن نعرف أم الأمير، فقال عمرو : امى سلمى بنت حرملة تلقب النابغة من بنى عَنَزة ، أحد بنى جلان • اصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ فاشتراها الفاكه بن المغيرة ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان ، ثم صارت

الى العاص بن وائل ، فولدت له فأنجبت ، فان كان جعل لك شيء فخذه ! » •

أما الغامزون فيذهبون الى أبعد من هذا • ونموذج منه ما ورد على لسان أروى بنت الحارث بن عبد المطلب وقد شتمها عمرو فى مجلس معاوية ، فردت عليه قائلة :

ـ وأنت يا ابن النابغة تتكلم وأمك كانت أشهر « امرأة تغنى بمكة وآخذهن لأجرة ؟! اربع على ظلعك ! واعن بشأن نفسك فوالله ما أنت من قريش فى اللباب من حسبها ولا كريم منصبها ! ولقد ادعاك خمسة نفر من قريش كلهم يزعم أنه أبوك ! فسئلت أمك عنهم فقالت : كلهم أتانى ! فانظروا أشبههم به فألحقوه به ! فغلب عليك شبه العاص بن وائل فلحقت به •

ولا يفوتنا أن قول أروى عن النابغة أنها كانت « أشهر » امرأة تغنى بمكة لا يؤخذ على المعنى العصرى للفظة الشهرة ، بل كانت الكلمة أقرب للسباب وأدخل فى معنى التشهير والافتضاح •

هو المألوف اذن فى حياة عاثرات الحظ من مثيلاتها فى تلك البيئة : غناء القيان • وما أبعد ذلك عن سمت السيادة والصيان • ثم البغاء ! وكان شيئا شائعا ببلاد الحجاز حينئذ فى عاصمة التجارة والثراء •

وليس ما ذكرته اروى فى حكاية نسب وليد من هذا شأنها

بدعا ، بل هو العرف الجارى فى الجاهلية • فهذه السيدة عائشة تقول : « كان يجتمع الرهط فيدخلون على المرأة فيصيبونها • فاذا حملت ووضعت ترسل اليهم فلا يستطيع واحد منهم أن يمتنع ، فاذا اجتمعوا عندها تقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم فهو ابنك يا فلان ! تسمى من أحبت أن تسميه فيلحق به ولدها ولا يستطيع أن يمتنع الرجل ! » •

***

والآن ماذا نفهم من هذا كله ؟

ليس من شك اننا بمقاييس العصر الحديث لا نرى لعمرو فى وصمة أمه جريرة يؤخذ بها فى منطق العقل والانصاف ، بل ونذهب الى أنها لم تحترف البغاء الا مكرهة بسبب السبى فجرى عليها ما كان يجرى على كل الاماء المغلوبات على أمرهن اللواتى لا يملكن شيئا من مصيرهن • فليست هى بالضرورة المرأة المبتذلة طواعية بغير اكراه • وليس ببعيد ـ لو لم تقع سبيا وقد ادركتها رماح العرب ـ ان تكون من فضليات العقائل اللواتى لا تلحق بهن شائبة •

ولكن مقاييس العصر الحديث ومنطق الحق والعدل شىء ، ومقاييس الجاهلية وما ترتبه على ذلك الوضع شىء آخر • وما من شك أن عمرو بن العاص كان ابن بيئته وعصره ، وبذلك الذى يجرى به العرف كان تأثره وتأذيه •

لقد أورد أبو عمر فى الاستيعاب أسماء نفر من أخوة عمرو من أمه تلك ، فاذا كل واحد أو واحدة من أب مختلف فهم عمرو بن أثاثة القدوى ، وعقبة بن نافع بن عبد قيش بن لقيط ، وزينب بنت عفيف بن أبى العاص وغيرهم كثيرون ! فكيف يكون شعور فتى من بنى سهم هو ابن سيد من أعظم السادات وأكثرهم منعة وثراء وعزة نفس وهو يعلم ان له أما بهذا الوضع الذى قد لا تكون لها فيه حيلة ، ولا له فيه حيلة ، ولكنه مع ذلك مأخوذ فى أعين الناس بما يقطع العرف انه عارها ، وعاره ؟

انه ابن سيد ولكن سنده فى السيادة مثلوم ثلما فادحا أليما لنفس الحر الأبى ، فما يكون من أثر ذلك عنده ؟ أو بتعبير أهل عصرنا الحديث ماذا يكون « رد الفعل » لهذا الشعور الموجع بالنقص ؟

حساسية مفرطة من جهة أمه ، يعوض عنها ـ تلقائيا ـ بالتزيد من اعتداده وزهوه بنسب أبيه ومكانته ومنعته وثرائه وترفه .

انظر اليه وقد عزله الخليفة عثمان بن عفان عن مصر ولامه على شبهات لحقت ولايته ، فاذا عمرو يشتاط غضبا ويقول فى عنجهية :

ـ لقد رأيت العاص بن وائل ورأيت أباك ، فوالله للعاص كان أشرف من عفان !

فاذا الخليفة الحصيف الوقور يكتفى فى الرد عليه بقوله :

ـ ما لنا ولذكر الجاهلية !

وهى كلمة ذات مرام بعيدة • فذكر الجاهلية من التفاخر بالأحساب مكروه • ولكن المعنى الآخر ان تقليب ذكر الجاهلية خليق ألا يسر عمرو بن العاص ، لأنه ذكر أمه النابغة !

واستمع اليه وهو يفخر امام الرسول الذى أوفده عمر بن الخطاب لمحاسبته ومشاطرته أمواله ـ يفخر على أمير المؤمنين بقوله:

ـ والله انى لأعرف الخطاب يحمل فوق رأسه حزمة من الحطب وعلى ابنه مثلها ! وما منهما الا فى نمرة لا تبلغ رسغيه ! والله ما كان العاص بن وائل يرضى أن يلبس الديباج مزررا بالذهب !

انه منطق التعويض عن الشعور الوجيع بالنقص • يلوذ لياذ المستجير بجاه ابيه ، ويبالغ فى التباهى به فى غير موضع للتباهى كى يدرأ عن نفسه خساسة ومضاضة تلحقان به من جهة امه •

ولكن هل حسبه التباهى بأب معرق نابه ؟

ان فيه لطموحا الى السؤدد • وحاجته الى تحقيق هذا الطموح مضاعفة كى يدفع به ما يستشعره من مهانة الأم • وليس بالمستطاع محو هذه المهانة المشهورة أو انكارها ، ولكن المستطاع تعويضها وتغطيتها بالسيادة على أبناء الحرائر والعقائل والتفوق عليهم فى مجال القدرة والنفوذ والسلطان •

لا بد لمثله من مجد شخصى اذن ! لا بد له من السيادة بأى ثمن ، وفى أى حال ••• لأن السيادة لمثله مطلب ليس منه مناص ، وليس له بديل • والا ظلت « قرحة » عار الأم تنزف ولا تجد البلسم الشافى ، أو المسكن الناجع ••

تلك ضرورة لا مناص منها لمن كانت له كبرياء عمرو وطموحه فكأنه يقول بما يحققه من تفوق شخصى خارق ، ومايفاخر به من سؤدد ابيه الباذخ :

ـ لا يضير من كان له أب كأبى ثم كانت له فعال كفعالى ، أن تكون له أم كأمى ••• ونفس عصام سودت عصاما •••

وانى لأتحدث بما أعلمه علم اليقين من أحوال من أعرفهم خير المعرفة أن ذوى الحساسية والكبرياء لا يذل سرائرهم ويوهن جانبهم ويطامن شموخهم شىء كأن تكون لهم أم مضغة فى الأفواه، بحق أو بغير حق •••!

وأقول ذوى الحساسية والكبرياء تعمدا على وجه الحصر والقصر ، فبدون اجتماع هاتين الخاصتين يرجح الا يكون للفتى عاصم من اتجاه آخر : اتجاه من يتحدى سقوط السمعة بعدم الاكتراث لسقوط السمعة ، فاذا هو يمعن فى التبذل وخلع العذار أيما امعان ، وبخاصة اذا لم يجد سندا من أب « فخم » يلوذ به من ضعة الأم ووصمتها • فما خوف الغريق من البلل ؟

لولا هذا الأب اذن لكان عمرو حريا أن ييأس من ارتفاع الرأس فى مثل هذه البيئة العربية الجاهلية ، فى عاصمة الانساب بالحجاز ، ولكان حقيقا ان يغدو من الفتاك أو الفساق ..!

لقد وجدت كبرياؤه فى سؤدد ابيه « طوق النجاة » من الغرق فى طوفان الخمول والوضاعة وهوان الشأن ، فلا غرو أن يتشبث به هذا التشبث العجيب !

ولا عجب يكون لهذا أثره البعيد فى توجيه سلوك عمرو بن العاص وتحديد مواقفه كلما ألفى نفسه فى موطن تتعارض فيه الغايات ويحتاج الى تقرير واختيار فاذا هو ابن ابيه من حيث يدرى، وابن امه النابغة من حيث لا يدرى !

تلك اذن أولى الأمور أن تدخل فى حسبان من يلتمس تفسيرا لغوامض نفس عمرو قبل اى اعتبار آخر .

الجاهلى الناشئ

كيف كانت سباحة هذا الفريق المتشبث بطوق النجاة ؟ وفى أى اتجاه ؟

سؤالان ندع الجواب عنهما للخبر المتواتر عن حياة عمرو بن العاص فى فتوته وشبابه ورجولته ، فى تلك البيئة الجاهلية بالحجاز، ثم بعد سرد الروايات والأخبار ، نستنطقها بلغة العقل الفاحص لنرى ماذا يمكن ان نفهم منها •

ولا يفوتنا فى هذا المجال أن الأفذاذ عموما ولا سيما من توجتهم ساحات الوغى أو ميادين السياسة أو دعوات الاصلاح بأكاليل المجد أكثر الناس استثارة للأساطير تنسج حولهم وتجعل لأمجادهم وشخوصهم ابعادا غير واقعية كتهاويل الأحلام فى كثير من الأحيان • وهذا اعتبار ينبغى الا يغيب عن أذهاننا ونحن نسمع ما تناقلته الأجيال عن هؤلاء الافذاذ ولا سيما فى زمن كانت الرواية الشفوية فيه سند التاريخ الأوحد •

أى الناس اذن كان عمرو الفتى والشاب ، قبل أن نسأل عن عمرو الرجل ؟

أول ما نبدأ به ذلك الخط الذى تسنى له من فنون التربية المتاحة فى بيئته وزمنه • فهو قد تعلم ركوب الخيل كأقرانه أبناء السادة من قريش فى سن مبكرة • وتعلم كذلك استخدام السيف فى المنازلة والمصاولة ، وحذق حيل العراك والكر والفر • وكلها فنون تعتبر من ضرورات الحياة العربية لدى الحجازيين عامة ، ولدى القرشيين خاصة لما تقوم عليه حياتهم من الأسفار البعيدة للتجارة الخارجية بتعبيرنا الحديث ، فى رحلتى الشتاء والصيف ، جنوبا الى اليمن والحبشة ، وشمالا الى الشام ومصر ••• وعمرو كما نعلم ابن قطب من أقطاب هذه التجارات القرشية التى تلزم لها الحراسة والاستعداد للتصدى ومواجهة مفاجئات الطريق فى مسالك معرضة للعرف السائد فى تلك الأزمنة من اعتبار قطع الطريق والسلب والنهب والأسر والسبى غنائم مشروعة للصعاليك والفتاك ••• وما كان شىء من ذلك ليغيب عن عمرو بوجه خاص • ألم تك أمه سبيا ممن أصابتهن رماح العرب على هذا النحو الشائع الذى جعل مفاجئات الطريق تكاد تدخل فى النسيج العادى للأسفار ؟

ونعلم كذلك أنه تعلم السباحة الى درجة عصمته من الغرق بين أمواج البحر فى حادثة سيأتى ذكرها فيما بعد ••• وهى رياضة أقل شيوعا من الفروسية وفنون السيف والقتال عموما بين أبناء الحجاز ، لأنها أقل ضرورة منها • فليست هذه البقعة المعمورة من الأرض شاطىء بحر ، ولا تشقها مجارى الانهار التى تجعل السباحه

أو الملاحة عنصرا أساسيا لا محيص عنه فى اكتساب الرزق وارتياد مكامنه . فمما يلفت النظر أن يكون عمـرو قد حـرص على تعلم السـباحة ، ولا ريب فى أن هذا الحـرص له مدلول خاص حين نتعمق مكونات شخصيته ودخائل طبعه .

وتجرى الكتابة والقراءة مجرى السـباحة فى قلة الشـيوع وعدم اللزوم الحتمى للبيئة الصحراوية لذلك العهد . فما كان أقل من يعرفون الكتابة بين أبناء الاشراف والمشتغلين بالتجارة فى قريش عند ظهور الاسـلام . فهذا الرسـول لم يكن يعرفها ولا يعـرف القـراءة ، وهو من هو فى ـ النسب الرفيع من بنى هاشم ، ذؤابة الشرف فى قريش . ومحمد كان فى الجاهلية تاجرا أيضـا ، مما يدل على أن الكتابة والقراءة لم يكونا من ضرورات حياة التجـارة والأسفار التجارية . وما كان أقل عدد الكتاب بين صحابة الرسول . وهم « عينة » صالحة للعرب فى زمنهم ثقافة وحضارة . ولكن عمراً كان كاتبـاً قارئاً . وكان حاسـباً أيضـا . وان كان كثير ممـن يجهلون القراءة والكتابة يعرفون من أوليات الحساب ما يحتاجون اليه فى ممارسة تجارتهم بيعا وشراء ومماكسـة فى الأسواق ابتغـاء الربح واتقاء الخسارة . وهذا « مؤشر آخر له دلالته على مكونات شخصية عمرو ودخائل طبعه .

ومن آخر حكمه فى الندرة أو قلة الشـيوع حكم القـراءة والكتابة والسباحة بين ابناء البيوتات العـربية فى عاصمة الحجـاز ،

ذلك فى الشعر • ولعمرو بن العاص أشعار حفظت لنا ، ليست فى الطبقة الأولى ولا الثانية بين طبقات هذا الفن الرفيع من فنون القول • ولكنه شعر « مناسب » يدل على فصاحة ، وعلى صدق فنى فى التعبير عن مشاعر هذا العربى الفذ وشخصيته ذات المعالم المتميزة • وان كان أقل من مستوى خطبه وكلماته التى يرسلها عفو الخاطر ، فاذا هى أصدق صورة لطريقته فى التفكير وزاوية نظره الى الأمور •

ولعل فى البيتين أو الثلاثة نموذجا صالحا لسائر أشعاره :

اذا المرء لم يترك طعاما يحبه
ولم ينه قلبا غاويا حيث يمما

قضى وطرا منه يسيرا ، وأصبحت
اذا ذكرت أمثالها تملأ الفما

فليس الفتى وان تمت عروقه
بذى كرم الا بأن يتكرما

وليس يفوتنا هنا أن هذا الشعر يدل على ميل شديد لضبط النفس ، على خلاف الشائع فى أشعار كثيرين من معاصريه الجاهليين فى القاء الحبل على الغارب وانتهاب اللذات • ولعل أبيات طرفة بن العبد تصور تلك الحياة الجاهلية خير تمثيل :

وما زال تشرابى الخمور ولذتى
وبيعى وانفاقى طريفى ومتلدى
الى أن تحامتنى العشيرة كلها
وأفردت افراد البعير المعبد !
ألا أيهذا اللائمى أحضر الوغى
وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى ؟
فان كنت لا تستطيع دفع منيتى
فدعنى ابادرها بما ملكت يدى !
فلولا خصال هن من عيشة الفتى
وجدك – لم احفل متى قام عودى
فمنهن سبق العاذلات بشربة
كميت متى تعل بالماء تزبد
وتقصير يوم الدجن – والدجن معجب –
ببهكنة تحت الخباء المعمد ..!

سطوة وخمر وقصف وفجور . وكلها وجوه من اطلاق العنان للجماح ، بالعدوان على الأرواح أو العدوان على الأعراض ، أو معاقرة الراح . وهذا بعينه الفرق بين من يخلع العذار استهانة واستهتارا ، وبين من يروم « سمت السيادة » ويحرص على استتمامه على حساب شهوات نفسه ، اتقاء ليوم « اذا ذكرت امثالها تملأ الفما » . وهى صورة تنم على استهوال الفضيحة ومضاضة العار والفزع من قالة السوء التى كنى عنها تلك الكناية البديعة بانها « تملأ

الفما » ••• وفى ذلك تلميح آخر قوى الاتصال بوقع مغامز أمه من سريرته المجرحة ••• ودليل على نبوه الشديد عن محاكاة سيرة أبيه • فهو حريص على أن « ينهى قلبه الغاوى حيث يمما » وان يترك « طعاما » يحبه • وليس من الحتم أن يكون الطعام هنا ماتطلبه المعدة ، بل كل شهوة من شهوات الحس الشهوان ••• وفى أسى واضح ينعى على من « يقضى وطرا يسيرا من شهواته » ثم يلحقه من جراء ذلك اليسير عار باق وخزى كثير !•••

لقد تعلم الفتى عمرو اذن كيف يتحرز من مثل فعال أبيه • فهو لا يندفع كمعظم سادات قريش فى الشهوات امعانا فى العنجهية، بل يتحرز من الوقوع فيها أشد التحرز ، وكأنى به لا شعوريا يغمز أباه ومن على شاكلته من سادات قريش السادرين فى شهواتهم بغير حساب للعواقب ، فى قوله :

فليس الفتى وان تمت عـــروقه
بذى كـرم الا بأن يتكـرما •••!

وذلك يعدل الانحاء باللائمة على من يظن ان عراقة نسبه أبا وأما – مثل العاص بن وائل – يضمن له الكرم والنبل وان ضل وغوى ••• مع أن كرمه لا يقاس بحسبه ونسبه ، بل بفعاله وتكرمه ، أى تحربه قواعد النبل فى سلوكه •

وبمثل هذا « المبدأ » لا يغمز أباه لاشعوريا ويثأر لما جناه

عليه فحسب ، بل يقيم لنفسه بين صفوف الكرام الحقيقيين مكانا مكينا - رغم المغمز بأن عراقته أو عروقه غير تامة - بما يتجنبه من الفواحش وما يتحراه من مناقب الكرام !

والآن ماذا نفهم من كل هذه « المؤشرات » أو « العلامات » على تربية عمرو ؟

نفهم أنها ليست تربية سلبية .

ونوضح معنى السلبية هنا فنقول ان التربية السلبية هى التى يكون غاية كل جهد الناشئ فيها أن يتعلم ما يراد له أن يتعلمه ولأنه مكلف بان يتعلمه مسوق اليه ، وما لم يطالبه المطالبون ، ويلاحقه الملاحقون ، ربما بالزجر أو الضرب لما جعل همه أن يتعلمه . ومن هذا شأنه لا يزيد ما يتعلمه على « الحد الأدنى الضرورى » الذى لا حيلة له فى أن يجهله وهو سليم البدن والحواس . ويكاد هذا « الحد الأدنى الضرورى » يكون من قبيل الهواء الذى يتنفسه الكافة ، ولا يكاد يحتاج الى جهد خاص أو همة خاصة فى اكتساب خبراته الشائعة فى أفعال الحياة اليومية لسائر الناس .

أما التربية الايجابية فنعنى بها تلك التربية التى يكون للناشئ فيها ارادة ظاهرة ، فلا يتعلم ما يراد له أن يتعلمه ولا ما يراد له أن يتعلمه فحسب ، بل يتعلم لأنه « يريد » أن يتعلم . وعلامة ذلك

انه لا يكتفى بما لا محيص للكافة من تعلمه ، فيكلف نفسه ما لاتكلفه اياه ضرورات مجتمعه الحتمية ، ويطلب ويحصل أشواطا وضروبا من الخبرات والفنون غير شائعة ولا ضرورية لأمثاله •

وتتبع هذه « الفرديات » أو « الخصوصيات » فى فنون التعلم والتربيــة يدلنــا دلالة صريحة على نسيج النــاشىء النفسى والعقلى ومكنونات طباعه • لأنه من المفــروغ منــه انه لا شىء يحدث بغير سبب كاف • ومن المفروغ منه أيضا ان النفس الانسانية ـ كسائر الموجودات فى الطبيعة ـ تعمــل بمبدأ « الاقتصــاد فى الجهد » أى الحصول على اكبر فائدة بأيسر مجهود وأقل طاقة • فما الذى يدفع ناشئا الى تكبد تحصيل معــارف وخبرات غير مضطر لتحصيلها كى يعيش فى مجتمعه عيشة سوية فى المستوى المألوف به ؟ لا بد أن ثمة سببا كافيا لذلك العناء كامنا فى دخيلة نفس الناشىء • ومن هنا نطلع على شىء من دخيلة تكوينه حين نعرف هذه « الخصوصيات » فى تعليمه وخبراته •

ونحن فيما ذكرناه آنفا عرفنا من تلك الخصوصيات :

السباحة

القراءة والكتابة والحساب

والشعر

أما السباحة فعدة « استثنائية » للعربى الرحالة بقوافل تجارته شمالا وجنوبا ، يستكملها من يضع نصب عينيه الا يكون مسـافرا

عاديا أو تاجرا عاديا ، بل يتحرى استتمام اسباب الحيطة لنفسه فيما عسى يعترض اسفاره من الطوارىء أو المخاطر أو العقبات . فهى علامة لا شك فى دلالتها على علو الهمة ويقظة الحس والتنبه للاعداد البدنى « الاستثنائى » الذى يضاف الى اتقان الفروسية واستخدام السيف فى النزال الفردى أو الجماعى . ومن تمت له الدراية بهذه الفنون وبالسباحة أيضا صار محاربا كامل الأهبة لأى موقف فى الحل والترحال ...

وأما القراءة والكتابة والحساب فوزنها يضارع وزن السباحة فى الأمور الذهنية . فكما أن السباحة متممة للاعداد « الاستثنائى » للمقاتل والمسافر فى ذلك العصر ، كذلك القراءة والكتابة والحساب متممة للاعداد « الاستثنائى » الذهنى للسيد الحجازى المشتغل بالتجارة وأمور الجماعة التى يعيش فيها ...

وأما الشعر فملكة استثنائية فى حد ذاتها . ولم تخل الجزيرة العربية من شعراء متفرغين للشعر ، يعيشون له ويعيشون به ، أما غير هؤلاء ، ولا سيما من طبقة السادة أو الطامحين الى السيادة فلم يكن الشعر من « ضرورات » حياتهم . وحسب الواحد منهم أن يكون مبينا اذا تكلم فى الندى أو وقف خطيبا فى جمع . فاذا تجاوز هذا الى التميز بالفصاحة فى التعبير وحضور البديهة عند مقارعة الحجة بالحجة والرأى بالرأى ، فقد بلغ غاية مايرجوه السيد الأمثل من عدة الوجاهة الاجتماعية والسياسية .

وكان عمرو بليغا حاضر البديهة ، له شهرة ذائعة فى الجواب المسكت والبيان الموجز الذى يغنى عن الافاضة والتفصيل ... ومن أمثلة ذلك ما يغنى قليله عن كثيره :

« الكريم يصول اذا جاع . واللئيم يصول اذا شبع . فسد خصاصة الكريم وأقمع اللئيم » .

وهذا دليل على انه ينظر للناس نظرة السيد الحاكم المسيطر وهم تحته يسوسهم لحسابه .

« ابلغ الناس من كان رأيه رادا لهواه . وأشجع الناس من رد جهله بحلمه » .

« اذا أنا أفشيت سرى لصديق فأذاعه فهو فى حل لأننى كنت أحق بصيانته » .

« العقل الاصابة بالظن ومعرفة ما سيكون بما قد كان ؛

« لا رجال الا بمال . ولا مال الا بعمارة . ولا عمارة الا بعدل » .

وهو نثر يدل على حصافة ونظر ثاقب فى طباع الناس ، وتنبه الى أن السيد من ساد نفسه وقمع هواه وجعل الروية والرزانة أقوى من الحمق . والحمق هو الذى عناه - بلغة معاصريه - حين قال « رد جهله بحلمه » فلم يكن الجهل نقيض العلم عندهم ، بل نقيض التجربة والحصافة والرزانة ، فهو فى باب التهور والطيش أدخل منه فى باب المعرفة .

ولكن عمرا لم يكتف بتلك العدة الحسنة للسيادة ، وزاد عليها عدة « استثنائية » هى الشعر الذى يقـوله فى مواطن الحكمـة أو الاعتبـار ، وهو على الجملة من معـدن أقواله النثرية البليغـة التى يترجم بها عن حصافته ونفاذ نظره فى طباع الخلق .

والآن على ماذا يدل مجموع هذه « المؤشرات » أو « العدة » الاستثنائية ؟ فى مجـالات الاعـداد البـدنى ، والاعـداد الذهنى ، والاعداد الفنى ؟

يدل على طموح فائق ، واصرار شديد منذ بواكير عمره على التفوق والتميز على أمثاله ممن قد يفوقونه فى « تمام العروق » على حد تعبيره فى شعره ، أى من يفـوقونه فى النسب الصريح الذى لا ثلمة فيه .

ويتمم هذه « الخصوصيات » التى تحتاج الى عناء فى التحصيل والأهبة شىء آخر يدل على حب السيادة ، وان كان لا يحتاج الى عناء فى تحصيله ، ونعنى بذلك مشيته التى تدل على أنفة واحساس بالارتفاع فوق سواد الناس ... حتى لقد نظر اليه عمر بن الخطاب يمشى فقال عنه :

– لا ينبغى لابى عبدالله (عمرو) أن يمشى على الأرض الا أميرا ...

وهذا فى حد ذاته شىء يتفق للفذ وغير الفـذ من الناس . فغير الفذ حقيقة قد يتوهم فى نفسه السمو من غير قدرة على السمو،

فتكون خيلاء مشيته كالطبل الأجوف ، أو كالحمار يختال فى جلد الأسد .. أما فى أبى عبد الله عمرو بن العاص فهى حلة سهلة مقترنة بخلال عسيرة وهى فوق هذا مسلك تعويضى لا بد منه لمن كان مثله قصيرا يطلب الاستطالة على الناس والعلو فوقهم . والقصير ما لم يكن وقورا شديد المهابة اقتحمته العيون ، ولم تتيسر له السطوة التى ينشدها وحب السيادة الذى حشد عمرو لتحقيقها كل قواه فى التعلم والتأهب ، يقترن أيضا بخلال خلقية استنبطنا جانبا منها حين تعرضنا لنموذج من شعره ، وعرفنا اهتمامه بضبط النفس ومغالبة الأهواء وكبح جماح الشهوات .

وهذه أيضا خصيصة من خصائص التعلم والتربية ! فهو قد عرف كيف يتعلم من أخطاء أبيه التى جرت عليه عار أمه ، فاحتفظ من اعجابه بأبيه بالزهو بالمكانة والحسب والجاه ـ لأن ذلك كله عتاد وعماد عظيم الأهمية فى المجتمع الجاهى بمكة ـ ولكنه لم يذهب فى الاعجاب الى حد التقليد ، بل أحسن التعلم من أخطاء هذا الأب .. وهو دليل على فطنته وحسن استعداده للتعلم من كل شىء ، والحصيف الأريب من اتعظ بسواه وذلك حرى أن يسلكه فى شبابه ورجولته مسلكا لن نلبث أن نبتغيه فى الصفحات التالية ...

جوّاب الآفـــاق

هذا الناشىء المتوقد ذكاء وطموحا ومضاضة وكبرياء •

أذكت المضاضة طموحه ونغزت كبرياءه ، فاندفع يزود نفسه بأسباب التفوق والمنعـة ، ويتعلم تجنب المكاره والمزالق ، وينـأى بنفسه عن مثل ما اجترحه ابوه فى حقه ، ويصبو الى عصامية تفرده بمكان يعلو فوق مغمز نسبته الى أمه ، ويجعله جديرا بنسبته الى أبيه • وكيف كان مكانه فى بيت هذا الأب المرموق ؟

مكان فوق مكان الدخيل ، ودون مكان الأصيل !

ففى بيت أبيه حرة من عقائل العرب تزوجها معتزا بها ، هى ابنة هشام ابن عقبة • ومنها أنجب ابنه الأصغر فسماه باسم أبيها ـ على غير سنة العرب الجارية ـ فكان هشام أخو عمرو والأصغر ابن الحرة ، قرة عين أبيه ، والسيد ابن السيد ، الاثير ابن الاثيرة !

كل ذلك بمـرأى ومســمع من ابن النـابغة • فهكذا كانوا ينبزونه تحقيرا لشأنه ، وغمزا فى نسبته الى أبيه • فانمـا هو ابن مستلحق وليس المستلحق كالاصيل !

أترى مثله يقر عينا بالمكث الطويل فى كنف مثل هذا البيت ! ما هو بدار قرار ، وان كانت ملاذا ريثما يجد سبيلا للتحول عنه الى حيث لا تثور المضاضة فى نفسه بما يرى ، أو بما يرى أو يسمع جميعاً ، بكل ما يشعره بالدونية فى موضع المقارنة بأخيه الأصغر هشام ابن الحرة العقيلة .

كل ذلك حفزه الى الجد وتحصين نفسه بما يزيد من هامته القصيرة ــ على الحقيقة والمجاز معا ــ فى ذلك البيت الكبير ، فالتمس ما شرحناه آنفا من استتمام الاهبة الاستثنائية فى مجال البدن ومجال الذهن ومجال القدرة البيانية . وكان ينظر ، ويسمع ، ولعله كان يتألم ــ ولكنه بالقطع كان يتأمل ويتعلم !

وفى سن الثانية عشرة فيما يقول ابن قتيبة تزوج عمرو ريطة بنت منبه بن الحجاج وأنجب ابنه عبد الله بن عمرو . وأكبر الظن أنه استقل وعرسه منذ تزوج بمعيشة خاصة خارج هذا البيت الكبير، حيث يستطيع أن يرفع هامته فى غير تطامن .

ونقف رويدا عند هذا الزواج المبكر .

وننبه الأذهان قبل كل شيء الى شيوع الزواج المبكر عند العرب الى يومنا هذا . ولكن ليس التبكير الى هذا الحد ــ أى سن الثانية عشرة ــ شائعا أو شبه شائع . فهو اذن ظاهرة تستوقف النظر فى حياة فتى بها كثير جدا مما يستوقف النظر ...

ونعود الى تصور حالة مثله النفسية فى البيت الكبير • والى حالة أبيه أيضا • فهذا الوالد ليس شديد الترحيب باستدامة اقامة هذا الفتى فى بيته ، حيث زوجته الحرة العقلية الأثيرة • فهو يذكرها ولا شك بما كان من ابن العاص • وغيرة الحرائر من الاماء وبنات الهوى قديمة • وليذكر من لا يذكر كيف استبدت الغيرة بسارة زوجة الخليل ابراهيم من اسماعيل بن ابراهيم من سريته هاجر المصرية • فهى طبيعة اذن فى الأناث المسيطرات الحريصات على أزواجهن والاستئثار بهم وما أشوق الرجل فى هذه الحالة ـ تحت الضغط المتصل ـ أن يسرح ابنه من الأمة أو السرية أو ما أشبه ذلك باحسان كى يستريح باله ويهنأ حاله •••

والفتى من جهته كان ولا شك يعانى من وحشة نفسية مرهقة للأعصاب . وتتوق نفسه الى «سكن» يجد فى كنفه العطف والرعاية والرحمة ، غير مشوبة بالمن أو الغمز أو الاستعلاء ، ولو على سبيل التوهم ! « سكن » يجد فى سطوته ومضاء كلمته لديها بلا معقب ما يأسو جرح نفسه التواقة الى العزة وبسط النفوذ •

ولا ينبغى أن تسقط من الحساب الحافز الجنسى الذى يثور لدى أبناء الصحراء فى السن الصغيرة • وفى الوسع أن نقول ان الاستهانة بالاتصال الجنسى الحر كانت فاشية جدا بين المحصنين بالزواج ، فهى لدى العزاب اكثر تفشيا • ولكن عمرا الذى لا يفتأ يتنزى جرح كرامته من اتصال أبيه بأمه على هذا النحو ، ومن اتصال أمه من باب

أولى على هذا النحو بالكثرة من الرجال ، حرى أن يفرق أشد الفرق من سلوك هذا المسلك ٠

نقول هذا القول لا على عواهنه ، بل لأن « شواهد الحال » تدل عليه ٠ فليس الفتى الخليع بالذى يحمل مسئوليات الزواج المبكر ٠٠ وليس الفتى المتأزم النفس من صلة غير شرعية ثلمت عزته وكبرياءه هو الذى يقبل متفتح الحواس مبتهج القلب على ذلك اللون من المجون ٠ ثم ان سيرة الفتى بعد ذلك تدلنا على أنه لم يكن « صاحب نساء » ولا كان مزواجا مطلاقا ٠

أو ليس هو القائل بعد أن صار أميرا على مصر ـ « لا ملل عندى لامرأتى ما أحسنت عشرتى ، ولا لصديقى ما حفظ سرى ، ان الملل من كواذب الأخلاق ! » ٠ ثم انه كان فى كثير من أسفاره يصحب امرأته معه ٠٠٠

وتلك علامة لها دلالة قاطعة على شيئين :

أولهما طبيعته الحذرة حتى لا يترك امرأته وحدها ـ وهما يعيشان عيشة مستقلة بعيدة عن « البيت الكبير » ، بيت أبيه ـ فان ذلك أصون لها ٠ وقد علمه عرض أمه المهدر ان المرأة حمى يجب أن يصان حتى لا يتعرض للاستباحة طوعا أو كرها ٠٠٠

والأمر الثانى ـ وهو ضالتنا فى هذا الحديث ـ انه كان حريصا على عفته ولا يريد أن يعرض نفسه للغواية فى رحلاته

الطويلة • وهو مسلك يختلف كل الاختلاف عن المعهود فى أبناء طبقته وغير طبقته من أصحاب التجـارات والعاملين فيهـا فى ذلك الزمن • فمدن القوافل وأسـواقها البعيـدة كانت أشـبه بالموانىء البحرية الكبرى فى أيامنا هـذه ، من حيث الوظيفـة التى تؤديها للمجتمع البشرى ، ومن حيث اجتماع مئات من الغرباء تجارا وعمالا فى القوافل ، ومن حيث الاكتظاظ بدور اللهو والمجـون والدعارة والخمر والقصف • كما هو الحال فى الموانى البحـرية التى تؤمها البواخر وعليها المئـات من الملاحين وأصحاب التجـارات ورجـال الأعمال ووكلاؤهم ••• ولا تروج فى مثل هذه المدن سلعة مثلما يروج البغـاء بشتى ألوانه ومسـتوياته • ولا يكاد يشـذ عن هذا القصف والمجون أحد من هؤلاء المسافرين الغرباء ، الا من عصم الله • فوضع فى طبعه النفور من الفجور ••

والشعر العربى حافل فى الجاهلية خاصة بذكر الليالى الحمراء فى تلك البلاد البعيدة وما يتاح للبـدوى فيها من ألوان المتعـة التى لا عهد له بها فى جزيرة العرب • ومكة خاصة • فأن « يتحصن » شاب فى أسفاره باصطحاب امرأته ، لتكون مجنا له مثلما هو مجن لها ، فذلك مسلك يسـتوقف النظر بمخالفته للمألوف • ولكنهـا المخالفة التى تستوجب الحمد لمقاومتها التيار السائد الفاسد •••

★★★

والمعيشة المستقلة المبكرة يترتب عليها السعى المبكر فى سبيل

الرزق أو الاستقلال الاقتصادى والاكتفاء الذاتى كما نقول بلغة هذا الزمان ...

ولم يصل الينا من أخباره أنه كان يسافر متاجرا لحساب أبيه ، ولكن الأخبار التى وصلتنا تروى أنه كان يسافر بتجارة خاصة به . ولم يصفها أحد بالاتسـاع الخارق ، ولكننا نعلم أنه كان يتاجر فى العطور كما يقول الكندى ، يحملها الى الشام ومصر شمالا ، والى اليمن والحبشة جنوبا . وكان يتاجر كذلك فى الأدم . وورد فى أخباره أيضا أنه كان فيما بين مواسم التجـارة والارتحال يحترف الجزارة « بين جزارى مكة » .

ويعنينا هنا أن نتعرض لمدرسة الاسفار التى تخرج فيها عمرو الشـاب والرجـل ، وقد أطنب الرواة فى ذكر رحلتين من هـذه الرحلات التجارية الكثيرة ، وهما رحلته الى الحبشة ، ورحلته الى مصر ، وكلتاهما اتفقت له وهو شاب ، وفى كلتيهما طرافة مثيرة ..

ونبدأ برحلة الحبشة ..

وهى الرحلة التى كاد يغرق فيها عمرو بن العاص فى البحر الأحمر . وخلاصة خبرها أن عمرا رحل فى احدى سنوات شبابه الى بلاد الحبشة متاجرا ، وصحب معه زوجتـه أم عبد الله . وكان معه فى السفينة فتى من شباب أشراف قريش البارزين هو عمـارة ابن الوليد المخزومى . وكان عمارة مشهورا بالمجون والاستهتار على

عـادة الأكثرية من أبنـاء السراة فى قريش ، وهم أشـد مجـونا واستهتارا حين يسافرون بعيدا عن موطنهم الأصلى • وطبيعى أن يكون فى الرحلة لمثله خمر وقصف • فشرب وهم يعبرون البحر الأحمر حتى سكر وظهرت طبيعة الاستهتار الكامنة فيه ، واذا هو ينظر الى زوجة عمرو بن العاص ـ ولعلها كانت جميلة ، ولعلهـا أيضا كانت المرأة الوحيدة على ظهر السفينة ـ ويشتهيها فلا يكتم ذلك الاشتهاء ، وفى تبجح المستهتر بالحرمات طلب اليها ان تقبله غير مبال بزوجها الجالس معه !

ويقال ان عمـرو بن العاص كظم غيظه وتصنع عدم المبـالاة وهو يأمر زوجته أن تقبـل ابن عمها ؟ فقبلته ! وما هو بابن عمها ولكن عمرا صاغ الأمر هذه الصـياغة كأنما يلتمس تبريراً ، حين يعتبره بمثـابة الأخ الذى لا غضـاضة على المـرأة أن تقبله • وهو تصرف يستوقف النظر طويلا من رجل يتقن النزال بالسيف ، وله فيما بعد بالشجاعة شهرة عريضة • وله بالأنفة والاعتـداد بالنفس شهرة لا تقل عن شهرته بالشجاعة والاقدام •••

فما تأويل ذلك ؟

هذا الفتى الطائش عمارة بن الوليـد كان فتى نهدا ، دافق الحيوية ، أوتى بسطة فى القـامة وقوة بطش لا تستغرب ممن كان أخا خالد بن الوليد • ولكن ليس معنى هذا أن عمرا كان جبانا •

كلا ! فللحادث جوه النفسى الخاص الذى لا يمكن فهمه الا بتمثل طباع رجل من معدن عمرو بن العاص !

عمرو شاب ذو كبرياء • وفيه اعتداد بنفسه • وفى قامته قصر • وفى عقله أناة ودهاء • فشجاعته ليست شجاعة البطش الأهوج والاقدام الطائش • ولكنها السلاح الذى لا يعمد اليه الا بعد ابراء الذمة ونفاد الحيلة فى اصطناع السماحة وافساح الفرصة أمام المخطىء لمراجعة نفسه والخجل من فعلته حين « تذهب السكرة وتأتى الفكرة » كما يقول المثل الدارج على الألسنة •

ثم ان قصار القامة عموما ـ ولا ينبيك مثل خبير ! ـ يتأذون أذى مضاعفا من شبهة الاستهانة بهم واستضعاف شأنهم • وحقدهم فى مثل تلك المواقف ليس كمثله شىء !

والمصابرة والتظاهر بعدم المبالاة انما هما علامة على انعقاد النية على الانتقام المميت • وعندئذ يجب ابراء الذمة بافساح المجال للمستهين كى يتورط فى مزيد من التهور والاستخفاف حتى لا تبقى فى استخفاف القصاص الهائل شبهة •

وليس حتما لزاما أن يكون القصاص فى التو واللحظة • فهذا فتى عملاق جبار عارم الثورة اذا هاج ، غير مأمون على كل ركاب السفينة فى عرض البحر وهو مخمور • وعمرو رجل الدهاء الذى يؤثر عنه ان الشجاع الحق من رد جهله (أى طيشه) بحلمه ،

ورد برأيه (أى رويته وتعقله) هواه • وهذا الفتى أشبه بالحيوان المتوحش الهائج ، فليست الشجاعة أن يتعرض له فى ظروف يكون فيها الرابح ، وتكون ، الخسارة على ركاب السفينة الآمنين • وسنرى فيما بعد ما يدل على أنه كان غير سليم العقل ، بل لديه استعداد للاختلال النفسى أسلمه للجنون المطبق • والرأى قبل شجاعة الشجعان ـ كما يقول أبو الطيب ـ هو أول وهى المحل الثانى •

ومن يتصيد حيوانا مفترسا هائجا لا بد الا يمكنه من الأذى، وأن يحاوره ويداوره الى أن يقع به من غير تعرض لمخاطره أو بلغة العسكريين المحدثين يجب أن يترك له اختيار مكان الموقعة وزمانها بما يوافقه ، بل ينبغى تدبير الزمان والمكان الملائمين لهزيمته ، واختيار الأسلوب المؤدى الى هذه الهزيمة •

والأناة والمصابرة فى هذا المقام لهما وجه آخر من وجوه الحكمة المقصودة ، فالرجل مخمور ، وبسط الفرصة أمامه كى يرتدع عندما يفيق أنفى لشبهة التسرع فى مؤاخذة من ليس فى حالته الطبيعية • فان لم يرعو بالمحاسنة والملاينة لم يبق له عذر ولا لذويه ـ وهم من أقوى بطون قريش ـ حق فى ملام أو عتب • وهى فى الوقت نفسه ـ كما قلنا آنفا ـ حيلة نفسية لاستدراج الطائش الى مزيد من الخطأ حتى يحق عليه أقصى العقاب • وهى بخلائق المظنون بهم نقص بدنى أو اجتماعى أشبه • وهى عند الواثق بقدرته على الايقاع بخصمه فى « الوقت المناسب » أحكم

خطة واقربها الى طبائعهم فى آن واحد ، لأن تجرع الغيظ حرى أن يزيد ضرام الحقد على هذا المستهتر المجترىء على الأقدار والاعراض بغير مبرر الا الضراوة وجموح الجهل وعرام الشهوة.

ولننظر الآن ما كان من عمارة بن الوليد بعد هذه الاستكانة الظاهرية :

لم يرعو ، بل زاد لجاجة ، وقد خدعه ما رأى من لين جانب عمرو واغضائه وحلمه ، فظن به العجز والضعف ، وأطمعه ذلك فى الظفر بزوجة صاحبه ، فراح يطاردها ملحا فى مراودتها عن نفسها تلميحا وتصريحا ، مسراً اليها حين تكون وحدها ، ومعلنا جاهراً بالمراودة بمسمع من زوجها ان لم يجدها بمفردها . وكانت « ريطة » ــ فهذا اسمها ــ ترده خائبا غير مقتصدة فى اظهار الضيق بسلوكه الطائش . والفتى الأحمق ضعيف العقل عارم البطش كالثور الهائج لا يرى شيئا الا هدفه الأحمر !

وهذه علامة أخرى على اختلاله العقلى الذى جرده من كل تدبر . ثم هو فوق هذا مغرور بفتوته وجماله ، فخيل اليه انه ما من «أنثى» من البشر تمتنع عليه زهدا فيه ، أو تمسكا بعفاف ــ فعند مثله ليس للعفة معنى فى رجل أو امرأة ازاء شهوة الحس الجامح ــ واعتقد انه الخوف لا الحياء : الخوف من زوجها . وبعقله الناقص ظن أن المرأة تخلص اليه بغير عائق متى أزاح زوجها من طريقه ، وبأى طريقة من الطرق ، وخير البر عاجله !

ومن سمات ضعاف العقول ان يجدوا العنف شيئا طبيعيا لا لشيء الا لقدرتهم عليه ، فلا يتورعون عن استخدامه رعاية لأى اعتبار من الاعتبارات • وليس غريبا أن تجد ضعيف العقل ممن توفرت له القوة الحيوانية يحطم واجهة زجاجية ليصل الى شيء زهيد راقه ، ولا يكلف نفسه التفكير الهين فى العثور على مفتاح يتجنب به التحطيم والتخريب • وهذا طبيعى لأنه لا يملك التدبير ـ بالغا ما بلغ هو ان ما يحتاج اليه من طاقة ذهنية ـ أما العنف البدنى فما يملكه منه نظير ما يملكه الوحش الضارى • وانما سمى العقل عقلا لأنه «يعقل» أى يلجم ويقيد جوامح النزعات الحيوانية • وليس لمثله ذلك الوازع ، فهو على سجيته البهيمية بلا كابح ••

وكالحيوان الضارى راح يتحين الفرص للايقاع بفريسته ، وجعل يتعقب عمرو بن العاص حتى اذا وجده ذات مرة عند حافة السفينة استجمع قوته ودفعه الى اللجة الطامية ، عسى أن يكون من المغرقين • ولم يكن يعلم ان صاحبه يجيد السباحة ، ولكنه فوجيء به يسبح فى ذلك البحر الذى تكثر فيه أسماك القرش المفترسة ، وكان من لطف المقادير انه أدرك السفينة وساعده ملاحوها على الصعود الى متنها • واذا بذلك الأحمق يزيد الطين بلة فيقول لعمرو بكل بلاهة ووقاحة :

ـ أما والله يا عمرو لو علمت أنك تحسن السباحة ما فعلتها !

وهذه ثالثة الأثافى كما يقولون ! ولكنها الكاشفة الفاضحة

لحقيقة « التركيب النفسى » المختل لذلك الفتى المستهتر - على ما يرويه ابن منظور - الذى كان يقول دائما فى معرض الزهو بنفسه « انما خلق البيض الحسان لنا ! » • فطبعة من تلك الطبائع التى تخلو خلوا تاما من « الحاسة الخلقية » التى اختص بها الانسان دون سائر الحيوان• فهو لا يعرف الا نداء شهواته الجسدية • وكل مايستطيعه فهو مباح لا تثريب عليه فيه من ضمير ، لأنه بغير ضمير ولا من حياء اجتماعى ، لأنه لا يعرف الحياء الاجتماعى ولا غير الاجتماعى •• فهو من هذه الجهة كالبهيم بغير فرق ! أقصى مايحسه البهيم من الضيق بنفسه انما يكون عند فشله • فهو ساخط لفوات مقصده ولا زيادة - ولذا نرى عمارة ساخطا لاقدامه على عمل يراه بمقياسه طائشا أبله ، لا لأنه مناف للخلق الكريم الذى لا يعرف له معنى ، بل لأنه كان يجهل ان عمرو بن العاص يحسن السباحة ولو عرف ذلك لما جشم نفسه عملا لا طائل وراءه !

نقول هذا عن عمارة ونقف عند هذه الوقفة لاننا سنحتاج الى هذه القرائن بعد قليل لتفسير ما كان فى ختام هذه المهزلة التى لم تتم فصولا ، والتى كان لعمرو فيها القول الأخير بعد التدبير المحكم المستأنى •

ووصلت السفينة الى غايتها من شواطىء الحبشة •

وندع ابن منظور محمد بن مكرم يروى بقية القصة كما وردت فى مختار الاغانى (جـ ٥) :

« فلما نزلا الحبشة كتب عمرو الى أبيه العاص ان اخلعنى وتبرأ منى ومن جريرتى الى بنى المغيرة وجميع بنى مخزوم ، لانه خشى على أبيه يتتبع بجريرته وهو يترصد لعمارة ما يترصد ، فلما ورد الكتاب على العاص بن وائل مشى فى رجال من قومه منهم نبيه ابن الحجاج ومنبه بن الحجاج الى المغيرة وغيره من بنى مخزوم فقال: ان هذين الرجلين قد خرجا حيث علمتم وكلاهما فاتك صاحب شر ، وهما غير مأمونين على أنفسهما ، ولا ندرى ما يكون ، فانى ابرأ اليكم من عمرو وجريرته ، وقد خلعته ، فقال بنو المغيرة : أنت تخاف عمراً على عمارة ؟ قد خلعنا اذن عمارة ونبرأ منه اليك ومن جريرته ، فحل بين الرجلين . فقال السهميون : قد قبلنا فابعثوا مناديا بمكة انا قد خلعناهما ، وتبرأ كل واحد منا من صاحبه. فبعثوا مناديا فنادى بمكة بذلك . فقال الاسود بن المطلب : والله طلّ دم عمارة بن الوليد الى آخر الدهر ! (أى ذهب دمه هدراً بغير ثأر) .

فلما اطمأنا بأرض الحبشة لم يلبث عمارة أن دب لامرأة النجاشى فأدخلته ، فاختلف اليها ... » .

ويقول بعض الرواة ـ وهذا أشبه بالسياق ـ أن عمراً هو الذى جعل يغرى عمارة بن الوليد بن المغيرة باستغلال فتنته وجماله كى يصل الى بعض حرم النجاشى ، فاندفع ذلك المغرور وفى تقدير

عمرو انه ان اخفق وضبط اطيح به ، وان نجح لم يعدم وسيلة للايقاع به لدى النجاشي •

ونعود الى رواية ابن منظور :

« •• فجعل عمارة اذا رجع من مدخله (عند امرأة النجاشي) يخبر عمرو بن العاص بما كان من أمره ، فجعل عمرو يقول : ما أصدقك أنك قدرت على هذا الشأن ! ان المرأة ارفع من ذلك ! فلما اكثر على عمرو بما كان يخبره ـ وكان قد صدقه ـ ولكنه أحب التثبت وأراد أن يأتيه بشيء لا يستطيع دفعه ان هو دفعه الى النجاشي • وكانا في بيت واحد ، وكان عمارة يغيب عنه حتى يأتيه في السحر ••• فقال له عمرو يوما : ان كنت صادقا فقل لها فلتدهنك من دهن النجاشي الذي لا يدهن به غيره ، فانني أعرفه ، وانني به أصدقك !

« •• وجاء عمارة بقارورة من دهن النجاشي، فلما شمها عمرو (وهو تاجر العطور الخبير عرفها وقال : أشهد أنك صادق • ولقد أصبت شيئا ما أصابه أحد من العرب من امرأة الملك • ما سمعنا بهذا !

« وسكت عنه حتى اذا اطمأن دخل على النجاشي فقال :

ـ أيها الملك ! ان ابن عمي سفيه ، وقد خشيت ان يعرني عندك أمره ، وقد أردت أن أعلمك شأنه فلم أفعل حتى استثبت ،

وانه قد دخل علي بعض نسائك فأكثر • وهذا من دهنك قد أعطيه ودهنني منه •

« فلما شم النجاشي الدهن قال :

ـ صدقت ! هذا دهني لا يكون الا عند نسائي ودعا بعمارة فقال له :

ـ انى اكره ان أقتل قرشيا • ولو قتلت قرشيا لقتلتك !

ثم دعا بالسواحر فجردوه من ثيابه ثم أمرهن فنفخن فى احليله ثم خلى سبيله ••• »

وفى تجريد الاغانى بقية القصة على النحو الآتى :

« فخرج عمارة هائما على وجهه مع الوحش • ومتى رأى الأنس هرب منهم وطلع له شعر غطى جميع بدنه ••• » •

والآن ماذا نفهم بعد من هذا كله ؟

نفهم الكثير من أمر عمرو ، ومن أمر عمارة •

فهما بعد خطان على طرفى نقيض • عمرو للأناة وضبط النفس الى أقصى حد ، وللتدبير والروية والحيلة والمكيدة ـ وهى أقصى عدة الحرب ـ وعمارة للجماح الطائش والحمق والبلاهة •

و « العصمة » من التدبير والتفكير والبصر بعواقب الأمور •
والمرء « بالعقل لا بالجسم انسان » • فشبيه بخلائق عمرو أن يتعرف الى مواطن الضعف فى خصمه ، وينفذ اليه منه أو بلغة عصرنا يستغله ضده •

وبذلك يجعل طبيعة عمارة اداة القضاء على عمارة • ويستعين عليه بذات نفسه •

وما من جانب الغرور بفتنته وجماله اتى عمرو عمارة ، فاذا به يقع فى الكمين الذى نصبه له •••

وفى الوقت نفسه نجد عمرو بن العاص لا يغفل فى عماية الحقد والغيظ وطلب الثأر عن واجبه نحو عشيرته ، ولا عن عواقب ايقاعه بعمارة ، وهو يعلم أن بنى مخزوم ـ قوم عمارة ـ اشداء عتاة ، فلماذا يثيرهم على بنى سهم وليس لهم بهم قبل ، وتكون حرب أو مجزرة طالما شقيت بمثيلاتها الجاهلية • وما يوم حرب البسوس بسر !

ثم ان هذا يدلنا على أن عمرو بن العاص اذ بدأ بهذا الاحتياط لأهله حين طلب اليهم خلعه والتبرأ منه انما كان قد وطد النفس على اهلاك عمارة بن الوليد بكل وسيلة ، فان لم تفلح الحيلة التى دبرها له لكان قمينا ان يلجأ الى وسيلة أخرى ، لا يستبعد أن تكون القتل الصريح •• ولكنه آثر أن يدع ذلك الى أن تفشل كل وسيلة

سواها ، استحسانا لوقوع دمه على غير عاتقه ، وايثارا لهلاك عمارة بحيث يبدو ذلك قصاصا من صاحب حق فى القصاص ، وهو ملك غاضب لعرضه ، لا سبيل لأحد من بنى مخزوم عليه .

وننتهى الى مسألة السواحر ، ونفخهن فى احليله (والأحليل مخرج البول من الانسان) فاذا هو يجن ويهيم على وجهه فى البرارى كالضوارى ...

وهنا نقف فلا يطول بنا الوقوف ، ويطوف بالذهن ما اشتهر به أهل الحبشة حتى عهد قريب من ايثار استخدام « الجب » ضد المجرمين والأسرى فى الحروب . والجب هو قطع القضيب ، وهو غير الخصى أى قطع الخصيتين .

ولئن كان « الجب » يستخدم عند الاحباش ضد الأسرى والمجرمين العاديين والخصوم السياسيين ، فهو أولى أن يستخدم ضد رجل مدان بالسطو على عرض احدى نساء النجاشى ...

ومثل هذه « العملية » خليقة أن تأتى على المسكة الباقية من عقل رجل بهيمى الطبع كعمارة بن الوليد ، فيهيم على وجهه ، وطبيعى الا يطيق رؤية الانس ، خزيا مما حدث له ، وقد فقد ـ فى نظر نفسه ـ أعز ما يملك !

وهذا يتسق مع ما ذكره الرواة من أن الشعر لم يسقط من جسمه ـ وهو ما كان خريا ان يحدث لو أنه خصى ولم يجب ـ بل

غطى الشعر كل جسمه حتى صار اشبه بالأوابد على الحقيقة لا على المجاز •

وهكذا طويت صفحة تحمل فى سطورها الكثير من خصائص شخصية عمرو ، وأسلوبه فى التفكير والتدبير ، وأعمال الحيلة ، وكبح الغضب وتأجيل ما لا يطاق تأجيله الى الفرصة التى يضرب فيها الضربة المعمية !

★★★

وها هنا ملحظ ينبغى أن نستأنى عنده •

فشجاعة عمرو وتدبيره شيء واحد • وهذا هو الدليل على أن تكوينه الفطرى تكوين « القائد » المطبوع على القيادة وادارة المعارك بمعناها الواسع ، وليس تكوين المناجز الفردى الذى تنحصر شجاعته فى نزال اللحظة الحاضرة واقتحام المواقف لأن اقتحامها والتصدى لها غاية فى حد ذاته ، وقيمته فى نظر نفسه رهن بالاقدام ، من غير تردد أو نكول ، فهذا بخلاف طبيعة عمرو الذى ينظر الى النصر نظرة أشمل ، ويراه الغاية التى يستخدم لها الوسيلة المناسبة ، فان كانت الكر والاقدام كر وأقدم ، وان كانت المراوغة والانسحاب وتأجيل الصدام الى أوانه المناسب بعد أن يعد له عدته لم يتردد فى المراوغة والتسويف والانسحاب •

وهذا التفريق ضرورى لادراك الفارق بينه وبين معظم

« الصناديد » من معاصريه وأقرانه • فهم كانوا أبطال اللحظة ، فى حين كان عمـــرو بطـل « التكتيك » و « الاستراتيجيــة » بالمعنى الحربى • وهى آية على أن الاقدار كانت تعده ليكون بفطرته قائدا فاتحا لا محاربا فرداً ! فحسب !

ولا بد أنه كان على جانب عظيم من الاعتداد بنفسه ، والثقة بعبقريته وسموها فوق المستوى العادى للقيم السائدة فى بيئته ، حيث كان يوزن الرجل باستهانته بالمهـالك واقتحامه الخطوب غير ميال بما يكون • فاما الفوز واما الموت ! وكانت النظرة الى من يحجم عن طنطنة الفتوة وسورة النزال نظرة خزى وتحقير • فلا يمكن أن يقاوم هذا « الضغط الاجتماعى » العنيف القاهر الا من كان ادراكه أعلى من العرف السائد ، ويقينه بتفوقه عاصمه من الوقوع تحت سطوته والتأثر فى سلوكه بتلك النعرة الخلابة •

***

ونتحدث الآن عن رحلته الى مصر ••

يقول ابن عبد الحكم فى كتابه فتوح مصر :

« وكان عمرو بن العاص قد دخل مصر فى الجاهلية وعرف طرقها ورأى كثرة ما فيها • وكان سبب دخول عمرو اياها انه قدم الى بيت المقدس لتجارة فى نفر من قريش فاذا هم بشماس من شمامسة الروم من أهل الاسكندرية قدم للصلاة فى بيت

المقدس ، فخرج فى بعض جبالها يسيح ، وكان عمرو يرعى ابله وابل أصحابه ، وكانت رعية الابل نوبا بينهم ، فبينما عمرو يرعى ابله اذ مر به ذلك الشماس وقد أصابه عطش شديد فى يوم شديد الحر ، فوقف على عمرو فاستسقاه ، فسقاه عمرو من قربة له ، فشرب حتى روى ونام الشماس مكانه • وكانت الى جانب الشماس حيث نام حفرة فخرجت منها حية عظيمة فبصر بها عمرو فنزع لها بسهم فقتلها ، فلما استيقظ الشماس نظر الى حية عظيمة قد أنجاه الله منها ، فقال لعمرو : ما هذه ؟ فأخبره عمرو أنه رماها فقتلها ، فأقبل الى عمرو فقبل رأسه وقال له : قد أحيانى الله بك مرتين : مرة من شدة العطش ، ومرة من هذه الحية ، فما أقدمك هذه البلاد ؟ فقال : قدمت مع أصحاب لى نطلب الفضل فى تجارتنا ، فقال له الشماس : وكم تراك ترجو أن تصيب فى تجارتك ؟ قال رجائى أن أصيب ما أشترى به بعيرا ، فانى لا أملك الا بعيرين ، فأملى أن أصيب بعيرا آخر فتكون ثلاثة أبعرة • فقال له الشماس : أرأيت دية أحد بينكم كم هى ؟ قال : مائة من الابل • قال له الشماس : لسنا أصحاب ابل انما نحن أصحاب دنانير ، قال : يكون ألف دينار • فقال له الشماس : انى رجل غريب فى هذه البلاد ، وانما قدمت أصلى فى كنيسة بيت المقدس ، وأسيح فى هذه الجبال شهرا ، جعلت ذلك نذرا على نفسى ، وقد قضيت ذلك وأنا أريد الرجوع الى بلادى فهل لك أن تتبعنى الى بلادى ، ولك عهد

الله وميثاقه أن أعطيك ديتين ، لأن الله عز وجل أحياني بك مرتين ؟ فقال له عمرو : وأين بلادك ؟ قال : مصر في مدينة يقال لها الاسكندرية • فقال له عمرو : لا أعرفها ولم أدخلها قط • فقال له الشماس : لو دخلتها لعلمت أنك لم تدخل قط مثلها ! فقال عمرو : وتفى لى بما تقول وعليك بذلك العهد والميثاق ؟ فقال له الشماس : نعم لك بالله على العهد والميثاق أن أفى لك وأن أردك الى أصحابك • فقال عمرو : وكم يكون مكثى فى ذلك ؟ قال : شهرا ، تنطلق معى ذاهبا عشرا ، وتقيم عندى عشرا ، وترجع فى عشر • ولك على أن أحفظك ذاهبا وأن أبعث معك من يحفظك راجعا ، فقال عمرو : أنظرنى حتى أشاور فى ذلك أصحابى ! فانطلق عمرو الى أصحابه ، فأخبرهم بما عاهده عليه الشماس قال لهم : تقيمون على حتى أرجع اليكم ، ولكم على العهد أن أعطيكم شطر ذلك ، على أن يصحبنى رجل منكم آنس به ، فقالوا له نعم !

وبعثوا معه رجلا منهم فانطلق عمرو وصاحبه مع الشماس الى مصر حتى انتهى الى الاسكندرية ، فرأى عمرو من عمارتها وكثرة أهلها وما بها من الأموال والخير ما أعجبه ، وقال ما رأيت مثل مصر قط وكثرة ما فيها من الأموال • ونظر الى الاسكندرية وعمارتها وجودة بنائها وكثرة أهلها وما بها من الأموال فازداد عجبا •••

ووافق دخول عمرو الاسكندرية عيدا فيها عظيما يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم ، ولهم أكرة من ذهب مكللة يترامى بها ملوكهم

وهم يتلقونها بأكمامهم • وفيما اختبروا من تلك الأكرة على ما وضعها من مضى منهم انها من وقعت الأكرة فى كمه واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم ! فلما قدم عمرو الاسكندرية أكرمه الشماس الاكرام كله وكساه ثوب ديباج ألبسه اياه ، وجلس عمرو والشماس مع الناس فى ذلك المجلس حيث يترامون بالاكرة وهم يتلقونها بأكمامهم ، فرمى بها رجل منهم ، وأقبلت تهوى حتى وقعت فى كم عمرو ! فعجبوا من ذلك ، وقالوا : ما كذبتنا هذه الأكرة قط الا هذه المرة • أترى هذا الاعرابى يملكنا ؟! هذا ما لا يكون أبدا !

وان ذلك الشماس مشى فى أهل الاسكندرية وأعلمهم أن عمراً أحياه مرتين وأنه ضمن له ألفى دينار ، وسألهم أن يجمعوا ذلك فيما بينهم ، ففعلوا • ودفعوها الى عمرو ، فانطلق عمرو وصاحبه ، وبعث معهما الشماس دليلا ورسولا ، وزودهما وأكرمهما ، حتى رجع وصاحبه الى أصحابهما •

بذلك عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها ، ورأى منها ما علم انها به أفضل البلاد وأكثرها مالا ، فلما رجع عمرو الى أصحابه دفع اليهم فيما بينهم ألف دينار ، وأمسك لنفسه ألفا •

قال عمرو : فكان ذلك أول مال اعتقدته وتأثلته (أى تجمع عندى) •

***

فماذا نفهم بعد من هذه الرواية ؟

واضح أن نصيب الاسطورة فى هذه الرواية جد كبير • وواضح أن الناس ابتدعوها بعد أن أصبح عمرو فلتة من فلتات زمانه وفتح الله عليه مصراً بأربعة آلاف عربى ، وهى معقل الامبراطورية البيزنطية ودرة تاجها • وللناس ولوع بزخرفة الأقاصيص عن الأبطال والأفذاذ ، فيأبون أحيانا الا أن تكون ولادتهم على غير ما ولد سواد الناس • ويأبون أحيانا الا أن ينسبوا اليهم الخوارق ، أو يجعلوا الأقدار تشير الى مستقبلهم الخارق للمألوف بآيات وعلامات أعجوبية • وما كرة الذهب هذه الا من قبيل تلك العلامات التى ينسجها الخيال الشعبى حول « رجل الأقدار » ، وكل مفادها أن عمرو بن العاص كان فى نظر الناس « رجل الأقدار » •

ومن المقطوع به أن أهل الاسكندرية لم تكن لهم مثل هذه العادة • وان ولاة الاسكندرية كانوا يعينون من بيزنطة لا من أهل الاسكندرية •

ولا يخفى أن عمرا كان يجهل القبطية واليونانية ، وان الشماس السكندرى لم يكن ليعرف الا هاتين اللغتين ، وليس له بالعربية علم ، فأى حديث هذا الذى كان من الممكن أن يتصل بينهما ؟ وانما هى الرغبة فى اشراك الأقدار نفسها فى الارهاص بذلك المستقبل الزاهر للتاجر الفقير راعى الابل الذى كان كل همه شراء بعير ثالث ، فاذا القدر يعده لملك مصر ! ولذلك بالغت الاسطورة

فى تصوير فقر عمرو كى تبرز المفارقة بين أمله المتواضع وما تخبئه له الأقدار ، وملك الملوك اذا وهب ، لا تسألن عن السبب !

ولكن الأمر الذى نستطيع أن نجزم به من غير تعرض للشطط ان عمرا زار مصر تاجرا ، وانه شهد من أحوالها، وخبر من احتكاكه بالمواطنين وصغار الموظفين ما أطلعه بفطنته الثاقبة على تدهور الحال فيها ، وتداعى نظام حكمها رغم مظهره الفخم ، وكأنه الدوحة التى نخرها السوس فتكفى هبة ريح قوية أو ضربة فأس واحدة لاسقاطها فلا تقوم لها قائمة !

سفير قريش

ويبدو أن كثرة أسفار عمرو بن العاص ،ولا سيما الى الحبشة جعلت له شهرة خاصة عند قريش ، ويبدو أيضا أن شهرة عمرو بالدهاء قد استفاضت ، فلما جد الجد فى مكة برز عمرو بهاتين الصفتين : صفة الرجل الداهية وصفة الرحالة جواب الآفاق ذى الصلات الوطيدة بكثير من أهل الحل والعقد فى هذا البلد أو ذاك ، ولا سيما بلاط نجاشى الحبشة ، فعمرو رجل حسن المدخل ، لطيف الحديث ، يحسن « جس النبض » كما نقول بلغة عصرنا ، وهذه عدة التاجر الناجح والدبلوماسى الناجح أيضا فى كل زمان .

ولكن ما هى الأحداث الجسام التى جعلت مكة تفرز كنانتها وتعجم سهامها ، وتتخير من أبنائها من تعول عليه فى الخطب الداهم؟

انها دعوة جديدة لم يكن للعرب بمثلها عهد من قبل ، ظهرت سنة ٦١٠ ميلادية على يد رجل من أشرف بيوتات قريش ، هو محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب . وتلك هى دعوة الاسلام !

وكانت سن عمرو بن العاص بن وائل السهمى عند بداية البعثة المحمدية على أرجح الأقوال أربعا وثلاثين سنة . وهى سن

رجل مكتمل الرجولة ، له ابن ـ هو عبد الله بن عمرو ـ نيف على العشرين • وله تجارة وتجربة وصلات كثيرة خارج الجزيرة وداخلها • وكانت بيوت قريش البارزة جميعا ـ عدا بني هاشم ـ تناهض هذه الدعوة الجديدة التي تتهدد بالتقويض كل ما تقوم عليه صروح المجتمع القرشي الحاكم • فانبرى كل من له مزعم في السيادة يقاوم هذا الخطر بكل ما يستطيعه من حول • وكان العاص بن وائل (والد عمرو) من أشد الناس امعانا ـ كما ذكرنا في موضع سابق ـ في النكاية للاسلام والمسلمين نكاية لا تعرف قصدا ولا هوادة • وكان عمرو يؤازر أباه ثم هو يرى المشاركة في هذا الاضطهاد فرصة للبروز في ميدان « العمل السياسي » كما نقول بلغة هذه الأيام ، فكيف يقعد عن فرصة كهذه ولا يهتبلها اهتبالا •• ؟

وبمرور السنين بلغ اضطهاد قريش للمسلمين الغاية التي تكاد لا تكون بعدها غاية ، فعدوا على من أسلم ، ووثبت ـ كما يقول ابن اسحق ـ كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكة اذا اشتد الحر ، من استضعفوا منهم ، يفتنونهم عن دينهم ، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه ، ومنهم من يطلب لهم ويعصمه الله منهم • ومن أشهر من عذبوا بلال بن رباح ، وكان عبدا لبعض بني جُمَح ، وكان أمية بن خلف بن حذافة بن جمح يخرجه اذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع

على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى ، فيأبى ويقول : أحد أحد !

وكان بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه اذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة .

وكان أبو جهل الذى يغرى بهم فى رجال من قريش اذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة ، أنبه وأخزاه وقال تركت دين أبيك وهو خير منك ! لنسفهن حلمك ، ولنفيلن (أى نقبحن) رأيك ، ولنضعن شرفك . وان كان تاجرا قال : والله لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك ! وان كان ضعيفا ضربه وأغرى به .

قال ابن اسحق : وحدثنى حكيم بن جبير عن سعد بن جبير قال : قلت لعبد الله بن عباس : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من العذاب ما يعذرون به فى ترك دينهم ؟ قال نعم والله ! ان كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه ، حتى ما يقدر أن يستوى جالسا من شدة الضر الذى نزل به ، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة ، حتى يقولوا له : اللات والعزى الهك من دون الله ؟ فيقول نعم ! حتى ان الجعل (ضرب من الخنافس) ليمر بهم فيقولون له : أهذا الجعل الهك من دون الله ؟ فيقول نعم ! افتداء منهم ، مما يبلغون من جهده !

ويستطرد ابن اسحق :

« فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه قال لهم :

ـ لو خرجتم الى أرض الحبشة، فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه .

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله الى أرض الحبشة ، مخافة الفتنة وفرارا الى الله بدينهم ، فكانت أول هجرة فى الاسلام ...

... وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة ، فكانوا بها ، منهم من خرج بأهله معه ، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل له معه ... وكان جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر اليها من المسلمين ـ سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغارا أو ولدوا بها ، ثلاثة وثمانين رجلا ...

فلما رأت قريش ان المسلمين قد أمنوا ، واطمأنوا بأرض الحبشة ، وانهم قد أصابوا بها دارا وقرارا ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جلدين الى النجاشى فيردهم عليهم ، ليفتنوهم عن دينهم ، ويخرجوهم من دارهم التى اطمأنوا بها وأمنوا فيها ، فبعثوا عبد الله بن أبى ربيعه (وكان اسمه يومئذ بحيرى ابن أبى ربيعة ذى الرمحين وهو أخو أبى جهل من أمه) وعمرو بن العاص بن وائل ، وجمعوا لهما هدايا للنجاشى وبطارقته وقواده ورؤساء عشائره ثم بعثوهما اليه فيهم .

ثم يقول ابن اسحق بعد ذلك رواية مرفوعة بالسند المتواتر الى أم سلمه بنت أبى أمية وكانت من المهاجرة الى الحبشة :

« لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خيرجار النجاشى ، أمنا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا بينهم أن يبعثوا الى النجاشى فينا رجلين منهم جلدين ، وان يهدوا للنجاشى هدايا مما يستطرف من متاع مكة • وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم (أى الجلود) فجمعوا له ادما كثيرا ، ولم يتركوا من بطارقته بطريقا الا أهدوا له هدية • وبعثوا بذلك عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص وأمروهما بأمرهم ، وقالوا لهما : ادفعا الى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشى فيهم ، ثم قدما الى النجاشى هداياه ، ثم سلاه أن يسلمهم اليكما قبل أن يكلمهم •

« فخرجا حتى قدما على النجاشى ، ونحن عنده بخير دار عند خير جار ، فلم يبق من بطارقته بطريق الا دفع اليه هديته قبل أن يكلما النجاشى • وقال لكل بطريق منهم انه قد ضوى (أى لجأ وتسلل ليلا) الى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم •

وجاءوا بدين مبتدع ، لا نعرفه نحن ولا أنتم • وقد بعثت الى الملك فيهم اشراف قومهم ليردهم اليهم ، فاذا كلمنا الملك فيهم

فاشيروا عليه بأن يسلمهم الينا ولا يكلمهم ، فان قومهم أعلى بهم عينا (أى أبصر بهم) وأعلم بما عابوا عليهم ! • فقالوا لهما : نعم !

« ثم انهما قدما هداياهما الى النجاشى ، فقبل منهما • ثم كلماه فقالا له :

ـ أيها الملك ! انه قد ضوى الى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا فيهم اشراف قومهم ، من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم اليهم ، فهم أعلى بهم علينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه •

« ولم يكن أبغض الى السفيرين من أن يسمع النجاشى كلامهم (أى كلام المهاجرين) ، فقالت بطارقته من حوله :

ـ صدقا أيها الملك ! قومهم أعلى بهم علينا وأعلم بما عابوا عليهم ، فاسلمهم اليهما فليرداهم الى بلادهم وقومهم •

وذلك أشبه فى أيامنا بطلب تسليم لاجئين سياسيين ، فماذا كان موقف النجاشى ؟ •

يقول ابن اسحق متمما الرواية المرفوعة الى السيدة أم سلمه (التى صارت فيما بعد من أمهات المؤمنين أزواج النبى) :

« فغضب النجاشى ، ثم قال :

ـ لا والله ! اذا لا أسلمهم اليهما ، ولا يكاد قوم جاورونى ، ونزلوا بلادى ، واختارونى على من سواى ، حتى أدعوهم ، فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم ، فان كانوا كما يقولان أسلمتهم اليهما ، ورددتهم الى قومهم ، وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهما ، وأحسنت جوارهم ما جاورونى !

« ثم أرسل الى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض :

ـ ما تقولون للرجل اذا جئتموه ؟

قالوا :

ـ نقول والله ما علمنا ، وما أمرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم كائنا فى ذلك ما هو كائن !

« فلما جاءوا ـ وقد دعا النجاشى أساقفته فنشروا صحائفهم حوله ـ سألهم فقال لهم :

ـ ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟

« فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب رضوان الله عليه ، فقال له :

ـ أيها الملك ! كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل

الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا . وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله . فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث . فلما قهرونا وظلمونا ضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا الى بلادك ، واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك :

« فقال له النجاشى :

ــ هل معك مما جاء به عن الله من شىء ؟

فقال له جعفر :

ــ نعم

فقال له النجاشى :

ـ فاقرأه على •••

« فقرأ عليه جعفر سورة مريم من أولها الى قوله تعالى :

« فأشــارت اليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبياً ؟ قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا • وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا • والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ! » ، فبكى والله النجاشى (والحديث لم يزل لأم سلمة) حتى اخضلت لحيتــه (أى ابتلت) وبكت أســاقفته حتى اخضلت صحائفهم حين سمعوا ماتلاه عليهم ، ثم قال النجاشى :

ـ ان هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة • انطلقا ! فلا والله لا أسلمهم اليكما • ولا يكادون ! » •

هو الفشل اذن لسفارة السفيرين • والايذان بعودتهما الى قريش بخفى حنين ••

ولكن هل يسلم عمرو بن العاص الداهية بالهزيمة بعد هذه الجولة الخاسرة ؟ •

سترى ذلك فى بقية حديث أم سلمة :

« •• فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص :

ـ والله لآتينه غدا عنهم بما استأصل به خضراءهم !

فقال له صاحبه :

ـ لا تفعل ! فان لهم أرحاما ، وان كانوا قد خالفونا فقال عمرو :

ـ والله لأخبرنه انهم يزعمون ان عيسى بن مريم عبد ! »

أرأيت الى أى حد تصل اللدادة فى الخصومة عند عمرو ؟ وأى حد يبلغ فى الكيد ؟

ولكن النجاشى مرة أخرى استدعى جعفرا وسأله ، فلما أجابه جعفر بما يقول القرآن فى المسيح من أنه روح الله وكلمته ألقاها الى مريم العذراء البتول ، رضى النجاشى وأكد للمسلمين الأمان فى بلاده .

ـ اذهبوا فأنتم آمنون بارضى . من سبكم غرم ! من سبكم غرم ! ما أحب ان لى ديرا من ذهب (والدير القدر العظيم من المال) وانى آذيت رجلا منكم ! ثم أشار الى عمرو وابن أبى ربيعة وقال : ردوا عليهما هداياهما ، فلا حاجة لى بها .. فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى فآخذ الرشوة منه . وما أطاع الناس فى فأطيعهم فيه .

وخرج السفيران من عنده مقبوحين مردودا عليهما ما جاءا به ، وأقام المسلمون عنده بخير دار مع خير جار ... !

★★★

والآن ماذا نستخلص من ذلك كله ؟

لقد أشرنا من قبل الى أن هذه المعركة ضد الاسلام لم تكن فى نظر عمرو الطموح الى الرئاسة وبروز المكانة سوى فرصة للعمل السياسى ، كى يثبت لقومه كفاءته ونفعه لهم عند الشدة • فكان مكانه الطبيعى ـ أى بحسب طبعه ـ ضد الاسلام فى صف الاسلام •

وبمنطق الطموح تفانى فى خدمة القضية التى وضع نفسه فى خدمتها وارتجى النفع منها ، ولم يكن الأمر يومئذ أمر حرب ، فما كانت شوكة المسلمين قد بلغت هذا المبلغ • ولكنه كان أمر نكاية وكيد • ثم حين فروا بعقيدتهم الى المنفى لم تجد قريش خيرا منه فى الدس لهم عند النجاشى ، لأنه صديقه من جهة ، ولأنه من جهة أخرى بارع الدهاء واسع الحيلة نافذ المكر •

ولولا ما هو ظاهر من قوة شخصية النجاشى واستقلال تفكيره وحبه للعدل واستقامة « الاجراءات » ـ كما نقول بلغة هذا العصر ـ لكان عمرو حريا أن ينجح فى الايقاع باولئك المهاجرين ، وقد سلك طريق رشوة بطانة الملك وائتمر معهم فأحكم المؤامرة • ولما خاطب الملك أحسن الحديث بلباقة الدبلوماسى الذى يهون للطرف الآخر قبول ما يطليه اليه متلطفا • ولم يكن فشل عمرو عن خرق أو قلة تدبير أو سوء تعبير ، بل لأمر لا حيلة له ولا لغيره

فيــه ، وهو « نزاهة » النجاشى نزاهة غير مألوفة فى ملوك ذلك العصر ، بل ملوك سائر العصور ، قبل أن تكون هناك حقوق ثورة للانســان فى القانون الدولى ••• وانمــا هى النخوة الفردية فى الفلتة من الرجال بين حين من الدهر وحين •••

الى هنا و « الدبلوماسية » أو التدبير السياسى المحكم اللبق فى مستوى عادى •

أما ما كان بعد الجولة الأولى من دسيسة عمرو فيما يتصل بالمســيح ، عند ملك على شعب شــديد الحساسية لكل ما يتصــل بالعقيدة ، فتلك وان لم تنجح لسبب خارج عن ارادة عمرو ، وهو يقظة عقل النجاشى وضميره ، هى العلامة على قدرة خارقة فى الدهاء والمكيدة ، تعده بآخرة من العمر لدور لا يكاد يعدل أثره الحاسم أثر فى حياة الدولة الاسلامية •••

حتى الخندق

هل كانت سفارة عمرو بن العاص ، أو على الأصح سعايته لدى النجاشى ضد المهاجرين المسلمين ظاهرة فذة فى تاريخ جاهليته الى أن اعتنق الاسلام ؟

ليس الأمر كذلك ! فعمرو له تاريخ « حافل » مديد ، على طول عشرين سنة أو أكثر فى محاربة الاسلام والمسلمين . فقد قضى النبى ثلاث عشرة سنة بعد بعثته فى مكة الى أن هاجر الى المدينة . وفى المدينة بعد الهجرة النبوية انقضت سنوات ثمان الى أن قدمها عمرو بن العاص مبايعا بالاسلام .

ولقد قيل انه انما كان يعادى الاسلام انقيادا لأبيه الذى كان يعتز به أشد اعتزاز .

وانه ما كان ليسلم وأبوه على قيد الحياة . فلما مات أبوه انتهى أمره الى الاسلام ...

وهذا كلام يحتاج الى الوقوف عنده بعض الشىء :

فها هو عمرو نفسه يقول لابنه عبد الله حين حضرت عمرو الوفاة بمصر (كما ذكر ابن الحكم) :

ـ بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فكنت « أكره الناس » لما جاء به ••• أتمنى لو أنى قتلته !

لم يقل كنت أكره ما جاء به محمد فحسب ، بل قال كنت « أكره الناس » لما جاء به • أى أشد الناس بغضا له ••• وليس فى هذا القول ما يدل الا على تطرف وحماسة فى عداء محمد ورسالته •

وليس يستقيم أن يكون هذا « بالوكالة » أو من « باطن شخص آخر » ، ولو كان اباه •

والدليـل على ذلك حاضر من تاريخ أخى عمرو الأصـغر نفسه • من تاريخ هشام بن العاص ، وهو أحب الى أبيه العاص وآثر لديه من عمرو •••

يقول ابن هشـام ان هشـام بن العاص بن وائل السـهمى (أخا عمرو من أبيه) كان فى عداد المهاجرين المسلمين الى مكة فرارا بدينهم من عسف قريش ، أولئك الذين أوفد عمرو سفيرا للايقاع بهم !

ثم يذكر ابن هشـام فى موضـع آخر بعد ذلك أن هشـام ابن العاص بن وائل كان فى عداد من رجعوا من الحبشة الى مكة ، وأنه لما رام الهجرة الى المدينة حبسه أهله فى مكة حتى هرب وهاجر « بعد أحد وبدر والخندق » •

ويروى ابن اسحق قصة حبسه فى مكة بعد أن كان على اتفاق مع عمر بن الخطاب ان يهاجر معه :

« حدثنى نافع مولى عبد الله بن عمر عن أبيه عمر بن الخطاب قال : اتعدت ، لما أردنا الهجرة الى المدينة ، أنا وعياش بن أبى ربيعة ، وهشام بن العاص بن وائل السهمى التناضب (اسم موضع) من اضاة بنى غفار (على عشرة أميال من مكة) وقلنا : اينا لم يصبح عندها فقد حبس ، فليمض صاحباه . فأصبحت أنا وعياش بن ابى ربيعة عند التناضب وحبس عنا هشام ، وفتن فافتتن ... فكنا نقول : ما الله يقبل ممن افتتن صرفا ، ولا عدلا ولا توبة قوم عرفوا الله ثم رجعوا الى الكفر لبلاء أصابهم ! وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أنزل الله تعالى فيهم وفى قولنا وقولهم لأنفسهم « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا ، انه هو الغفور الرحيم . وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل ان يأتيكم العذاب ، ثم لا تنصرون . واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل ان يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ! » قال عمر بن الخطاب : فكتبتها بيدى فى صحيفة وبعثت بها الى هشام بن العاص فقال هشام ابن العاص : فلما أتتنى جعلت أقرأها بذى طوى (موضع بأسفل مكة) أصعد بها فيه وأصوب ولا أفهم . حتى قلت : اللهم فهمنيها ! فألقى الله تعالى فى قلبى انها انما أنزلت فينا . وفيما كنا نقول لأنفسنا

ويقال فينا • فرجعت الى بعيرى فجلست عليه فلحقت برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة •

ويروى ابن هشام رواية أخرى تدل على أن هشام بن العاص كان محبوسا فى مكة مقيدا :

« ان رسول الله قال وهو بالمدينة من لى بعياش بن أبى ربيعة وهشام بن العاص ؟ • فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة : أنا لك يا رسول الله بهما ! فخرج الى مكة وقدمها مستخفيا • فلقى امرأة تحمل الطعام • فقال لها : أين تريدين يا أمة الله ؟ قالت :أريد هذين المحبوسين (تعنيهما) فتبعها حتى عرف موضعهما • وكانا محبوسين فى بيت لا سقف له • فلما أمسى تسور عليهما ، ثم أخذ مروة (حجرا) فوضعها تحت قيديهما ثم ضربهما بسيفه فقطعهما • فكان يقال لسيفه ذو « المروة » لذلك • ثم حملهما على بعيره وساق بهما فدميت أصبعه فقال :

هل أنت الا اصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت

ثم قدم بهما على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة •

وسواء صحت رواية ابن اسحق أو ابن هشام ، فشتان هشام ابن العاص وعمرو بن العاص فى موقفهما من دعوة الاسلام ! •

وهل أدل على « استماتة عمرو فى عداء الاسلام والمسلمين

من أنه لم يكن سفير قريش الى النجاشى ضدهم بآخرة من الزمن فحسب ، بل كان منذ بداية البعثة المحمدية لسانا من أقذع الألسنة التى انبرت فى قريش لهجو النبى وتكذيبه وتحقير شأنه . وله فى ذلك شعر يذكره الذاكرون مع شعر عبد الله بن الزبعرى وأبى سفيان بن الحارث .

وغبرت بعد سفارة الحبشة الخائبة سنوات لم يتغير فيها سلوك عمرو بن العاص ، وهاجر النبى الى مكة ، وعمرو مشغول بشئون قريش وحربها للنبى ، ويقول الترمذى ان النبى كان يدعو على أبى سفيان والحارث بن هشام وعمرو بن العاص .

وروى عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه قال :

« قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص : لقد عجبت لك فى ذهنك وعقلك كيف لم تكن من المهاجرين الأولين ؟ فقال عمرو : وما أعجبك يا عمر من رجل قلبه بيد غيره (يريد أباه) لا يستطيع التخلص منه الا الى ما أراد الذى هو بيده . فقال عمر : صدقت .

ومثل هذا المنطق المتهافت قد يخدع من به غفلة عن احوال عمرو وسنة وفاة أبيه ولكن هيهات أن ينطلى على من له بصيرة نافذة كبصيرة عمر !

وأرجح الأقوال أن أباه مات بعد هجرة الرسول بشهر واحد

ولكن انقضت سنوات ثمان بعد موت أبيه قبل ان يهاجر عمرو الى المدينة ويسلم .

لم يكن أبوه اذن وسلطانه عليه هو الذى منعه من الاسلام . ويروى انه سئل (فى رواية ابن عساكر) :ما أبطأ بك عن الاسلام وأنت أنت فى عقلك ؟ فأجاب : انا كنا فى قوم توازن حلومهم الجبال. ما سلكوا فجا فتتبعناهم الا وجدناه سهلا. فلماأنكروا على النبى صلى الله عليه وسلم أنكرنا معهم ، ولم نفكر فى أمرنا وقلدناهم . فلما ذهبوا وصار الأمر الينا نظرنا فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم وتدبرناه فاذا الأمر بين فوقع الاسلام فى قلبى .

وهذه الرواية أيضا ينقصها انه انتظر ثمانى سنين بعد موت من يعنيه ــ وهو أبوه ــ حتى أسلم .

وكذلك دائما منطق التبرير ...

ولم يحضر عمرو غزوة بدر . ولكنه كان فى القافلة التى قدمت بتجارة قريش وأراد النبى أن يغنمها . قال ابن اسحق :

« ... ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع بأبى سفيان ابن حرب مقبلا من الشام فى عير لقريش عظيمة فيها أموال لقريش وتجارة من تجاراتهم وفيها ثلاثون رجلا من قريش أو أربعون منهم مخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة وعمرو بن العاص

ابن وائل ••• فندب الرسول المسلمين اليه وقال : هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا اليها لعل الله ينفلكموها ••• »

فهو اذن كان مشغولا بالاشتراك فى الحرب الاقتصادية ولم يكن امتناعه عن خوض معركة بدر تعففا أو ترددا • ولا سيما ان الرأى السائد عند قريش قبيل بدر أن هزيمة المسلمين لن تحتاج الى العدد العـــديد • فكانت المعركة « فرض كفاية » « لا فرض عين » ••

فلما هزمت الفئة القليلة من المسلمين الفئة الكثيرة من قريش فى بدر وأعملت فيهم القتل والأسر ووجب الثأر ، كان عمرو ممن خرجوا الى الحرب مستميتين • وآية ذلك انه كان فى عداد من أخرجوا معهم ظعائنهم ، أى أزواجهم •

يقول ابن اسحق : وكان ممن خرج أيضا عمرو بن العاص بريطة بنت منبه بن الحجاج (وهى أم ولده عبد الله) •

ولخـروج الرجل فى هذا اليوم معنى خاص ، أبعد ما يكون عن التورط أو الخروج للقتـال على مضض • وانما هو الاستماتة فأحرص ما يحرص عليه الرجل العربى حريمه ، فهو حين يقدم بحريمه على مكان الغزو أو النزال يلقى بكل كيانه فى المعركة ، معرضا النفس والنفيس معا حتى آخر رمق للضياع بسبب الهزيمة، لأن عاقبتها ليس ضياع روحه أو أسر شخصـه فحسب ، بل سبى

زوجته وبناته أيضا • والموت أهون على العربى من هذا •

هى الاستماته اذن فى قتال المسلمين والأخذ بثارات بدر ، حماسة من عمرو بن العاص لقضية قريش ضد دعوة محمد • وهى حلقة اخرى فى سلسلة عدائه القديم للاسلام ، ولذلك الرسول الذى كان ـ أيام شركه ـ أبغض الناس له وتمنى لو قتله !

وانجلت أحد فى المرحلة الأخيرة من الموقعة عن هزيمة المسلمين واستحر فيهم القتل ، وكثرت المثلة والبشاعة وناهيك بما حدث لحمزة ! وارتفعت أصوات من أدركوا ثأرهم بالشماتة • وتبارى شعراء قريش فى نظم الأشعار كى تسير بنصرهم على محمد الركبان • فلم يتقاعس عمرو بعد مشاركته فى القتال خارجا اليه بزوجته أم عبد الله ، أن ينظم الشعر مرة أخرى فى التنقص من محمد وصحبه ودعوته ، كما نظم عبد الله بن الزبعرى وضرار ابن الخطاب الفهرى •

ويروى ابن اسحق شعرا لعمرو بن العاص فى معركة أحد •

★★★

وتمر السنون وعمرو سادر فى عدائه للنبى ، حتى تكون غزوة الخندق ، ومن المقطوع به أنه شارك فيها فى شوال سنة خمس للهجرة ، فقد روى ابن اسحق عن تلك الليلة التى أرسل الله فيها ريحا صرصرا عاتية على معسكر قريش :

« فلما انتهى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اختلف من أمرهم ، وما فرق الله من جماعتهم ، دعا حذيفة بن اليمان فبعثه اليهم لينظر ما فعل القوم ليلا . وعن يزيد بن زياد عن محمد ابن كعب القرظى :

قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان :

ـ يا أبا عبد الله : أرأيتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبتموه ؟

قال : نعم يا ابن اخى .

قال : فكيف كنتم تصنعون ؟

قال : والله لقد كنا نجهد . والله يا ابن أخى لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخندق ، وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هويا من الليل (أى فترة منه) ثم التفت الينا فقال :

ـ من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ؟ اسأل الله تعالى ان يكون رفيقى فى الجنة .

وبذلك شرط رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجعة . فماقام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد . فلما لم يقم أحد دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى ، فقال :

ـ يا حذيفـة ! اذهب فادخل القـوم .. فانظر ماذا يصنعون ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا .

فذهبت فدخلت فى القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ماتفعل ولا تقر لهم قدرا ولا نارا ولا بناء . فقام أبو سفيان فقال :

ـ يا معشر قريش ! فلينظر كل امرىء من جليسه !

فضربت بيدى على يد الذى عن يمينى فأخذت بيده فقلت : من أنت فقال معاوية بن أبى سفيان ! ثم ضربت بيدى عن يد الذى عن شمالى ، فقلت من انت ؟ قال : عمرو بن العاص » .

★★★

عمرو بن العاص اذن فى الرعيل الأول من قادة قريش فى غزوة الخندق ! كتفه تكاد تكون الى كتف معاوية بن أبى سفيان ، ابن زعيم الشرك نفسه .

وكأنما كان هذا ارهاصا بمواطن تجمع الرجلين على رأس معسكر مقاتل بعد هذا اليوم بسنين ، يغيران معا تاريخ الاسلام ، بل تاريخ الدنيا ... من غير ريح صرصر تجتث اصول جندهم وتقلب قدورهم وتحبط تدبيرهم وتجعل كيدهم فى تضليل ..!

★★★

وفشلت غزوة الخندق .

فهل ترى ثاب عمرو الى رشده ورجع عما هو فيه ؟

فلنستمع الى رواية ابن اسحق عن زيد بن ابى حبيب ، عن راشد مولى حبيب بن ابى أوس الثقفى (وقد ذكر هذه الرواية ابن الحكم ايضا وبمثل هذا السند) قال :

« حدثنى عمرو بن العاص من فيه قال : لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعت رجالا من قريش كانوا يرون رأيى ويسمعون منى ، فقلت لهم :

ـ تعلمون والله انى أرى أمر محمد يعلو علوا « منكرا » . وانى قد رأيت امرا . فما ترون فيه ؟

قالوا : وماذا رأيت ؟

قلت :

ـ رأيت أن نلحق بالنجاشى ، فنكون عنده ، فان ظهر محمد على قومنا ، كنا عند النجاشى . فانا أن نكون تحت يديه أحب الينا من ان نكون تحت يدى محمد ! وان ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا ، فلن يأتينا منهم الا الخير !

قالوا : ان هذا نعم الرأى !

قلت : فاجمعوا لنا ما نهديه له .

وكان أحب ما يهدى اليه من أرضنا الادم (الجلد) فجمعنا له أدما كثيرا ، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه ... » .

وهنا يحتاج الأمر الى وقفة يسيرة ·

ففى هذا ما يدل على أن عمرو بن العاص ذو طبيعة عملية · وليس صاحب طبيعة نظرية ·

ونزيد الأمر وضوحا فنقول انه لم يكن الرجل الذى يضع نفسه فى خدمة الشعارات المثالية ، بل يحرص على أن يستخدم هو الأحداث الواقعة لخدمة أغراضه · ولا يسمح لشىء ولا لأحد باستخدام شخصه أو مواهبه وكفاءته العالية الا بمقدار ما يتمشى ذلك مع ما يريد ···

فهو عندما وجد الموقعة بعد الموقعة تتجلى عن انتصار محمد وصحبه لم تفته عبرة هذه الانتصارات وهو القائد المطبوع الذى يحسن قبل كل شىء « تقدير الموقف » تقديرا موضوعيا لا يخدع فيه نفسه حتى لا يؤخذ على غرة ·

ومن يقظة الذهن ولا شك أن لا يدع أمانيه تغرر به · لأنه ألمعى فطن ·

ومن جهة أخرى ليس مثله من ينساق وراء المثالية ، فليس فيه شىء من خلائق المطبوعين على الاستشهاد ـ كالحسين بن على مثلا ـ وانما هو طالب نصر ، اينما كان هذا النصر ، فكيف يسمح لتيار التاريخ الذى أخذ هديره يملأ سمعه المرهف ان يغرقه فى طوفانه الهائل ؟

ومن جهة ثالثة ينبغى الا يفوتنا أن فريق قريش وأحلافهم لم يكن لهم عقيدة تملأ جوانب النفس ، ويرتخص فى سبيلها النفس والنفيس ، وانما هى نعرة التقاليد وعنجهية السلطان القائم على هذه التقاليد . وهيهات تكون للات والعزى وغيرهما من أوثان قريش الشائهة هيمنة تقنع عقلا ذكيا مثل عقل عمرو بن العاص . فلم يكن « كفاحه » ضد محمد وصحبه ودعوته عن ايمان بحق ثابت يهون فى سبيله البذل والفداء ، بل عن تمسك بالاطار الذى يتوقع ان يحقق فيه مطمحا يليق بابن العاص بن وائل السهمى فى الثراء والرئاسة . وليس كالحرب والسياسة مجال للبروز والتفوق يستهوى كل طموح مؤمن بعبقريته .

وها هو على امتداد ما يقرب من عشرين عاما قد جرب مكائد السياسة ، وبلاغة القوافى ، ووقائع القتال المسلح ، ومساعى السفارة وراء البحار ، من غير ان يظفر هو أو تظفر قريش من محمد ودعوته ..

بل ان الامر على العكس من ذلك تماما . ففريق محمد يزداد فى كل يوم عددا وعزة ومنعة . والاحتكام الى السيف حجة ناهضة اكثر من كل حجة منطقية فى نظر رجل مطبوع على صفات الجندية والقيادة . واتساع النفوذ بين القبائل ـ رغم قلة الموارد ـ حجة ! تنهض من كل حجة عند رجل مطبوع على السياسة والتفكير

العملى • وعمرو كان مطبوعا على الجندية والدهاء والتفكير العملى جميعا •

وقلة الموارد هنا ذات معنى خاص فى نظر « تاجر ابن تاجر » فى بوادى الحجاز وحواضره • فان ثراء قريش كان « طاقة اغراء » كبرى للقبائل الفقيرة كى تسير فى ركابها كما تسير النسور فى ركاب الجيوش التى عودتها القرى من لحوم القتلى •••

اما ألا يكون لهذا المهاجر الى المدينة موارد كثيرة ولا قليلة ، فليس يملك اذن من المغريات المادية للقبائل الأخرى كثيرا ولا قليلا ••• فكيف اذن تميل الى طاعته ، وتدخل فى دعوته ، وتعادى أغنى قبائل الحجاز وأقدرها على الضر والنفع ؟

هذا ملحظ لا يمكن أن تفوت دلالته فطنة « مفكر عملى » مثل عمرو بن العاص •••

وحصيلة هذه الاعتبارات كلها كانت حرية أن تحمل عمراً على مراجعة موقفه • فهو تراه بدأ يرى من الخير ان يغير موقفه من ذلك الصدام المسلح بين قريش ومحمد بن عبد الله ودعوته والداخلين فيها المجاهدين فى سبيل نشرها ونصرها ؟

هذا طبيعى بالبداهة •

ولكن هل يمكن ان تحدث هذه المراجعة فجأة ، كأنها

« انقلاب » داخلى فى سريرة هذا الجاهلى الذى كان قطبا من أقطاب قريش فى حربها وسياستها ؟

ان سريرة مثل عمرو بن العاص أشبه بحركة المد البحرى الذى لا ينقلب تياره فجأة ، بل يبلغ ذروته ثم يأخذ بعد برهة فى الانحسار شيئا فشيئا .

ومهما بلغ من مراجعة النفس فلا بد من فترة لاعادة الحساب اكثر من مرة ، قبل ان يكون « الانقلاب » مقبولا وممكنا . وهو انقلاب داخلى فى باطن سريرة عمرو كما قلنا . لذا يجب ان نتوقع مقاومة من داخل هذه السريرة تتجمع فيها رواسب الوراثة ، ونفوذ ماضى حياته وارتباطاته الظاهرة والباطنة ... مقاومة تتحمل الاسباب والمبررات لتعويق « الانقلاب » وتغيير المعسكر من النقيض الى النقيض ...

هذا اذن أوان الحاجة الى « مرحلة انتقالية » .

وأول بوادر هذه المرحلة الانتقالية التى تمهد للانقلاب الحاسم أن ينفض يده من المعسكر الذى سلخ قرابة عشرين سنة وهو يؤازره باللسان والسيف والحيلة . وينعزل عزلة من يطاول آماله السابقة الى ان يتبين انقطاع كل سبيل اليها ، فينقلب عن وجهتها انقلاب من لا حيلة له ولا بقية من أمل لديه .

ولكن كيف ينعزل عن قريش وهو فى قريش ؟

لا بد اذن من عزلة فى المكان تلائم العزلة فى الرأى والسلوك! ومعنى هذا بعبارة أخرى انه ليس عن النفى الاختيارى أو الهجرة المؤقتة محيص ، الى ان « يتبين الخيط الابيض من الخيط الاسود » ولا تبقى فى عاقبة الأمور مماحلة !

ولكن هل يذهب الى هناك بمفرده ؟

انه ليس فريدا فى حالتــه الفكرية والنفســية تلك فى هذه المرحلة من الصراع بين قريش وبين محمد وصحبه . وانما عمرو ابن العاص « نمط » بارز لطباع من على شاكلته من رجال قريش. وليس معنى انهم على شاكلته انهم فى مثل عبقريته ومقدرته ونفاذ بديهته ودهائه . بل معناه انهم من معدنه النفسى . وان لا ايمـان وطيد يربطهم بقريش ، وأن تفكيرهم العملى يبغض اليهم ان يكونوا فى الحزب الخاسر ، الذى تدور عليه الدوائر ، وشبيه الشيء منجذب اليه !

انظر الى عمرو يقول .

ـ جمعت رجالا من قريش كانوا يرون رأيى ويسمعون منى!

فما تراه قال لهم ؟

انها لا بد ان تكون مقالة من يقرأ ماضى خواطرهم ، ويبرر لهم ما يميلون اليه وان ترددوا فى الجهر به . ولهذا نراه لا يزال على عدائه لمحمد ودعوته ، ولا يصف انتصاراته الا وصف المقيم

على كراهتها ، لأن الأمل لم ينقطع بعد تماما فى هزيمته :

تعلمون والله انى أرى أمر محمد يعلو علوا « منكرا » ••• !

ووصف علو محمد بأنه « منكر » وصف ناطق بذاته لايحتاج الى تعليق !

ـ ••• وان نكون تحت يدى النجاشى أحب الينا من أن نكون تحت يدى محمد !

منطق يدل على كراهة الواقع ، ولكنه يدل أيضا على بداية التراجع والتمهيد لتغيير الاتجاه فى الوقت المناسب تغيرا لا يمكن ان يتم بطريقة « الى الخلف در » ! فى بساطة وسذاجة ، وانما بمناورة يمارى فيها نفسه وارتباطات حياته ـ وقد نيف على الخمسين ـ كأنما يخدع خصما أو يأخذه بالحيلة كى يستدرجه الى ما صار يعلم انه لا محيص له عنه ولا مناص !

حتى الحُدَيْبِيَة

والآن انظر الى عمرو بن العاص يتم حديث هجرته الى الحبشة تلك ، كما رواها ابن اسحق :

« فوالله انا لعند النجاشى اذ جاءه عمرو بن أمية الضمرى ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه فى شأن جعفر وأصحابه (من المهاجرين الأولين الى الحبشة) فدخل على النجاشى ثم خرج من عنده ، فقلت لأصحابى :

ــ هذا عمرو بن أمية الضمرى ، لو قد دخلت على النجاشى وسألته اياه فأعطانيه فضربت عنقه ! فاذا فعلت ذلك رأت قريش أنى قد أجزأت عنها (أى كفيتها) حين قتلت رسول محمد ...

فدخلت على النجاشى وسجدت له كما كنت أصنع ... ثم قلت له :

ــ ايها الملك ! انى قد رأيت رجلا خرج ، وهو رسول رجل عدو لنا ، فأعطنيه لأقتله ، فانه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا !

فغضب ثم مد يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت انه قد كسره!

فلو انشقت لى الارض لدخلت فيها فرقا منه ••• ثم قلت :

ـ ايها الملك ! والله لو قد ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه !

قال :

ـ أتسألنى أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى لتقتله ؟!

قلت :

ـ أيها الملك ! أكذاك هو ؟

قال :

ـ ويحك يا عمرو ! أطعنى واتبعه ، فانه والله لعلى الحق ، وليظهرن على من خالفه ، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده !

قلت :

ـ أفتبايعنى له على الاسلام ؟

قال :

ـ نعم !

ثم بسط يده فبايعته على الاسلام ، ثم خرجت الى أصحابى وقد حال (أى تغير) رأيى عما كان عليه ، وكتمت أصحابى اسلامى •••

والآن الام تهدينا رواية ابن اسحق هذه ؟

سؤال تأتى الاجابة عنــه بعد ان ننظر فى مضـمون الرواية نفسها ، وما يمكن ان تثبت له ، قبل ان نتصدى لمعرفة ما تثبته ..

وأول ما يتبادر الى الذهن أن هذه ليست أول رحلة لعمرو ابن العاص الى بلاد الحبشة وبلاط النجاشى ملك الحبشة . ونحن نعلم بخاصة أمر رحلة سابقة كان فيها عمرو بن العاص سفير مكة الى النجـاشى (ومعـه عبـدالله بن ابى ربيعــة) فى طلب تسـليم «اللاجئين» المسلمين الى جـوار النجاشى هربا من اضطهاد قريش للمستضعفين من اتباع محمد . ونعلم كيف كان رد النجاشى الحاسم على هذه السـفارة ، بحيث عاد عمـرو وصاحبه من سعيهما بخفى حنين ..

وليس ذلك النجاشى بالرجل الامعة . فقد وضح من اخبار تلك السفارة أنه صاحب رأى مستقل اشد الاستقلال ، وله مبادىء لا يحيد عنها . وقد جهدت قريش وجهد سفيراها (عمرو ومعـه ابن ابى ربيعة) فى الاحتيال للتأثير عليه عن طريق بطانته من رؤساء العشائر وكبار القواد . وحرص السفيران على حمل الهدايا اليهم واحدا واحدا والتوصية المشددة لديهم أن يؤيدوا سعى السفيرين بالمشـورة الحاضرة . ولو كان النجاشى حاكمـا من طراز الحكام الجهلاء ضعاف الشخصية لنجحت المؤامرة ، وجنى السفيران ثمـار رشوتهما وتدبيرهما ، ولكن النجاشى أثبت بالدليل القاطع انه رجل لا يقطع برأى ولا يصدر حكما الا عن بينة . ولا يمكن أن يسمع

طرفا واحدا فى دعـواه • بل لا بد له من سماع ما لدى الطرف الآخر من أقوال • وقد حقق القضية بنفسه وصدم السفيرين بأنه فى صف رجال آمنوا باله واحد ، ولهم عقيدة صنو « ما انزل على موسى من النـاموس الأكبر » ، وانه من ثمة ضـد عقيـدة عبـادة الأوثان •

وجدير بمن كان فى حصافة عمرو بن العاص ـ بل من كان أقل منه حصافة بكثير ـ ان يدرك ان حسن استقبال النجاشى له ، وتلقيه هاشا باشا ، وتلقيبه اياه ب « صديقى) واستحسانه ما يهديه اليه من « الأدم » ، كل ذلك لا يصدر عن أكثر من السـماحة أو التسامح الدينى ، أو غض النظر عن معتقدات ضيوفه ايمانا منـه بحرية العقائد • ولكنه اذا جد الجد ووجب عليه ان يناصر فريقا ضد فريق لم يتردد فى الانحياز بحميـة ونخـوة لمن يعبدون الله الواحد المتعال ضد من ينكرون الوحدانية الالهية ويتوجهون بعبادتهم للأوثان •

ـ انتم ضيوفى على الرحب والسـعة • وان كنت اعلم انكم لستم على الحق • فان أسأتم فهم ضيافتى ورغبتم الى فى مؤازرتكم على الباطل لبست لكم جلد نمر •••!

كأنما قال النجاشى ذلك صراحة لعمرو وصاحبه فى اعقـاب تلك السفارة الأولى طلبا لتسليم مهاجرة المسلمين • فهم كان ينتظر من أريب يحسن التعلم من الأخطاء ، ومن لبيب تغنيه الاشارة عن

التصريح ، ان يغفل عن مغزى ذلك الدرس الموجع ، ولا سيما بعد ان كرر عمرو السعاية فى صدد عقيدة المسلمين فى المسيح ، وفشل هذه السعاية ذلك الفشل الذريع الذى انتهت به كل حجة ، وبطلت به كل مماحكة ؟

كيف نعقل ان يتردى عمـــرو بن العـاص فى هـذه الغلطة العقلية ، وهذه الغلطة السياسية ، التى تدل على غباء وعلى «جليطة» معا ؟

ولا يفـوتنـا ان « الجليطة » فى عـرف الرجـل الحصـيف «الدبلوماسى» الخبير بالتعامل مع الملوك وذوى السلطان لا تقل فداحة عن الغباء بالمعنى العام ، وتورث صاحبها فى تلك الاوسـاط الخزى الأليم •

كيف يعقل بعد ذلك الدرس القاسى ـ بل الدرسين القاسيين ـ أن يتردى عمـرو بن العـاص فى قاصمة الظهر ، بأنه يطلب الى هذا الملك بعينه لا تسليم لاجئين اليه ، بل تسليم رسول ـ والرسول فى عرف جميع الحكام حتى فى تلك العصور آمن ـ ورسول من ؟ رسول محمد الذى شهد فى حقـه النجاشى من قبل هذه الشـهادة الطيبـة فى حميـة وحماسـة ••• لا ليحمـله الى أهله يعـاتبونه ويحاسبونه ، لأنهم ـ كدعواه فى السفارة الأولى ـ « أعلى به عينا واعلم بما عابوه عليه » • بل ليضرب عنقه !

مستحيل ليس كمثله مستحيل !

ومن قال بغير هذا فقد جهل مناقب عمرو بن العاص وخصائصه العقلية والنفسية • وهو الداهية الحصيف الأريب الذى أول سماته انه يلبس لكل حال لبوسها •

فالقصة ـ الى هذا المدى منها على الأقل ـ أسطورة مختلقة على عمرو • فالرحلة الى الحبشة ليس منها مانع عقلى ، ولا عليها اعتراض ، بل هى اجراء سليم يتسق وحالة عمرو العقلية والنفسية ، وهو ومن على شاكلته ممن اضطرهم انتشار الاسلام واشتداد شوكته ـ رغم كل الموانع الظاهرة ـ الى مراجعة موقفهم منه ، بعد غزوة الخندق •••

ولماذا غزوة الخندق بالذات ؟

لا بد للاجابة عن هذا السؤال من الاحاطة بما اكتنف غزوة الخندق من « جو » سياسى وعسكرى • والسياسة والحرب أهم عناصر الحياة عند ذلك المحارب الداهية عمرو بن العاص ••

جيش ضخم أتى لمحاصرة المدينة • فلم يكن أمام المسلمين غير محاولة التحصن • وأشار سلمان الفارسى ـ وهو الذى يعرف بحكم أصله الأجنبى من أساليب الحرب ما لا يعرفه العرب الخلص ـ ان يحفر المسلمون خندقا حول المدينة • وان يحصنوا منافذها• وعمل جميع المسلمين فى حفر ذلك الخندق ، وعلى رأسهم النبى

الذى كان يعمل فى الحفر ورفع التراب بيديه • واقترض المسلمون آلات الحفر من مجارف وفئوس وزنابيل من يهود بنى قريظة الذين ظلوا حتى ذلك الحين على الولاء لعهدهم مع المسلمين • وبذلك تسنى الفراغ من حفر الخندق فى ستة أيام • وتم اخلاء المساكن القريبة من الخندق ونقل النساء والأطفال الى منازل حصينة بعيدة عن الخندق •

وكان الوقت شتاء • ففوجئت قريش بأنها لن تفرغ من الحرب بهجوم خاطف ، بل لا بد لها من حصار لا تدرى متى ينتهى أمده • وضربوا خيامهم وأخذ القلق بمرور الايام يساورهم • ولا سيما أن بنى قريظة كانوا يمدون المسلمين المحاصرين بالمؤن التى تمكنهم من الثبات شهورا طويلة •

وكان طبيعيا أن يفكر حيى بن أخطب فى استمالة بنى دينه يهود بنى قريظة واذكاء ما بنفس اليهود من ثارات محمد ، وان هذه الفرصة التى اجتمع فيها العرب على حرب محمد ان أفلتت لن يهزم محمد بعدها ، ولا يفلتها شىء سوى مؤازرة يهود بنى قريظة لمحمد بالمؤن وحماية ظهره • وهكذا انتهى الأمر بكعب بن أسد زعيم يهود بنى قريظة أن نقض عهده مع محمد والمسلمين وخرج من حياده • ولم تفلح سفارة سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ـ وهما سيدا الأوس والخزرج ـ فى رد بنى قريظة الى نهج الولاء والوفاء • وأخذ كعب بن أسد يسب محمدا ويعلن نقض العهد ،

بل انكاره من أساسه • وانقطعت المؤن عن المدينة ، وارتفعت روح احزاب المشركين المعنوية • وراحوا يستعدون لاقتحام المدينة • فلا عجب يراع أهل المدينة ، وليس أبلغ من وصف القرآن لهذه الحالة : « اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم • واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر • وتظنون بالله الظنونا ! هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا • واذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض : ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا ! •• » •

فهل من أمل لقريش وأحلافها أزهى من هذا الأمل فى استئصال شأفة محمد وأصحابه ؟ ان قائدا مثل عمرو يحسن « تقدير الموقف » على النمط العسكرى والسياسى معا لا يمكن أن يرجو أهبة للنصر فوق هذه الأهبة •

ومن طبيعة مثل هذا الموقف ان انقلاب الميزان فيه من قمة النصر الى هوة الفشل تزعزع الأمل وتدخل الريبة من مستقبل النصر الى نفس كل قائد يحسن وزن الأمور وتقدير المواقف •

وطبيعى أن صناديد قريش وأحزابهم أخذت تفكر فى اقتحام الخندق ، فوقع اختيارهم على أضيق مكان فيه فوثبوا بخيولهم الى العدوة الأخرى وأخذوا يناجزون ابطال المسلمين الذين انبروا لهم ، وفيهم على بن ابى طالب ، وهو بعد فتى يافع • وكان فى صناديد العرب الذين اقتحموا الخندق من لا يقف له أحد من المبارزين ، ومن استطارت شهرته فى النزال كل مطار ، أمثال

عمرو بن عبد ود الذى أخذ يتحدى المسلمين على عادة ذلك العصر يطلب كفؤا له يبارزه .

وانبرى الفتى اليافع على بن أبى طالب لمبارزته ، فقال عمرو ابن عبد ود متلطفا أو مستهينا :

ـ لم يا ابن أخى ؟ فوالله ما أحب ان أقتلك !

فقال له على :

ـ لكنى والله أحب أن أقتلك !

يقول ابن هشام :

« فحمى عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه ، ثم أقبل على على فتنازلا وتجاولا ، فقتله على رضى الله عنه ، وخرجت خيل المشركين منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة ! »

لم يكن كل من فى جيش المدينة على بن أبى طالب . فمما يروى على سبيل التفكه ما حدث من حسان بن ثابت شاعر الرسول ، وكان شجاع اللسان لا معرفة له بشىء من أمور الحرب.

يقول ابن اسحق :

« حدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن ابيه عباد قال : كانت صفية بنت عبد المطلب (عمة النبى) فى حصن حسان بن ثابت ، وكان حسان فيه مع النساء والصبيان ، فمر رجل من يهود جعل يطوف بالحصن ، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت مابينها

وبين رسول الله • والرسول والمسلمون يقاتلون عدوهم لايستطيعون ان ينصرفوا الى شيء غير ذلك • فقالت صفية لحسان : يا حسان ! ان هذا اليهودى كما ترى يطوف بالحصن وانى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود • وقد شغل عنا رسول الله واصحابه فانزل اليه فاقتله ! قال : يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب ! والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا ! فشدت صفية وسطها ثم أخذت عمودا فنزلت من الحصن فضربت اليهودى بالعمود حتى قتلته ! فلما فرغت منه رجعت الى الحصن فقالت : يا حسان ! انزل اليه الآن فاسلبه ، فانه لم يمنعنى من سلبه الا انه رجل ! قال : مالى بسلبه من حاجة يا ابنة عبد المطلب ! » •

فكأن حسان بن ثابت خاف الرجل وهو ميت ، مع ان امرأة قتلته بعمود خيمة ! ولعل هذا الحادث يدل على الحالة النفسية التى وصفها القرآن على ما ذكرنا آنفا لدى فريق من المسلمين •

وعمد النبى الى حيلة سياسية كلف بها نعيم بن مسعود فأوقع بين بنى قريظة وأحزاب المشركين ، فوقعت الفرقة بينهم ، وتردد الكثيرون منهم فى الاقدام على قتال محمد •

الى هنا والعوامل الطبيعية المنظورة لم تزل فى صف قريش والاحزاب • ومع هذا فوقيعة نعيم بن مسعود لم تكن معلومة لقريش ولا لعمرو بن العاص ، فكان طبيعيا أن تبدو آثارها فى نظر عمرو

ومن لف لفه شيئا غير مفهوم ظهر فجأة بغير مقدمات طبيعية ترهص به .

ولم يكن هذا كل شيء !

فما عتمت أن عصفت بالليل ريح شديدة واندلعت البروق والرعود وهطل المطر كأفواه القرب . وأخذت الريح الصرصر العاتية تقتلع خيام ذلك الجيش الضخم وتقلب قدورهم من فوق النيران حيث كانوا يلتمسون الدفء والطعام . فارتحلت الأحزاب ورفعت الحصار عن المدينة وكأنما هو سحابة صيف تقشعت فجأة !

ظاهرة لا شك فى أنها ليست من تدبير انسان . فمن الطبيعي أن تدخل الريبة نفس من ينظر الى ما يحدث فيجده ناقضا كل حساب للعوامل المنظورة التى يتاح تدبيرها لبنى الانسان . واذا دخلت فى الامر عوامل غير منظورة ، فتلك اذن لا بد أن تحسب فى كفة الفريق الذى يقول انه مؤيد بسلطان فوق سلطان البشر . وآن بذلك لمن كان يحسن الحساب وتقدير المواقف مثل عمرو ابن العاص أن يراجع نفسه بعد ان انطلق السهم الأخير فى كنانته وكنانة أصحابه ، وكان يحسبها القاضية فاذا هى طعنة فى الهواء !

هذا هو الجو النفسى والسياسى والعسكرى بعد الخندق ، وهو المقدمة الطبيعية لمثل « الاجراء » الذى أقدم عليه عمرو بن العاص الأريب الذى يحسب حساب العواقب ويحفظ خط الرجعة شأن

القائد المحنك فى مواقع الحياة والسياسة والحرب على السواء •

رحلته الى الحبشة اذن بعد الخندق جاءت فى أوانها المقدور !

ولكن ما ورد منسوبا اليه عما جرى بينه وبين النجاشى يرفضه العقل على علاته ، ويراه أسطورة لا تثبت للنظر الفاحص •

ولكن يبقى بعد ذلك أن نسأل : ولماذا الأسطورة ؟

ان من شأن الاسطورة أن تنبعث على ألسنة الناس وتشيع فى أسماعهم وأخلادهم بدافع من اعظام شأن الشخصية التى تنسج حولها هذه الأقاويل •• أو التهاويل ••؟

ونقول اعظام شأن الشخصية ونحن لا نعنى بذلك تمجيدها فى جميع الأحوال . وانما المقصود الاعظام من باب التجسيم والاستهوال ، سواء فى جانب الخير أو فى جانب الشر • فليس الاعظام بالضرورة ـ فى التصور الأسطورى ـ تابعا ومرتبطا بالمستوى الخلقى • فقد تنسج خيوط الأسطورة حول شخصية شريرة ـ بل ما أكثر ما تنسج ! ـ استهوالا لقدرتها على الايذاء • وقل من بيننا ومن لم تطرق سمعه وتستثر وجدانه أحاديث أسطورية فى طفولته عن السعلاة أو العنقاء أو « أبى رجل مسلوخة » أو « البعبع » أو « العفريت » وما تفعله من الشرور الجسام والاضرار المروعة بالكبار والصغار ••

منبع الأسطورة اذن شعور باستهوال شخصية ما ، واقعية أو

رمزية ، استهوالا يخرج بها عن نطاق الواقع المعهود بين الناس في حياتهم اليومية • فان تعلق الناس بشجاع تصوروه ـ على ما نسمع من رواة الملاحم الشعبية ـ تقدح عيناه بالشرر ، أو يأكل عجلا مشويا فى وجبة واحدة ، ويقول بعده هل من مزيد ! أو يقتل بسيفه ألفا بضربة واحدة • أو يصرع ثورا هائجا بقبضة يده • أو يخترق رمحه عشرة رجال دفعة واحدة •• وما الى ذلك من التهاويل التى تجسم القوة البدنية وشجاعة المقاتلين • وان تعلقوا بزاهد نسبوا اليه من الكرامات والخوارق ما يجسم امانى النفس وأشواقها أو خشوعها وتقواها : من قبيل أنه يصوم ـ مثلا ـ عن الطعام والشراب فترات تحسب بالشهور لا بالأيام ، أو تمده الملائكة بالفاكهة فى غير أوانها يتلقفها من الهواء ! والناس ينظرون مشدوهين ••• وان افتتنوا ببطل اخترعوا له نسبا أو حكوا عن ولادته الاعاجيب ، كأنهم ينكرون أن يولد كما يولد كل ابناء النساء ، بغير خلاف فى طريق الحمل أو المخاض ! ••

فان تمثلنا هذه « العقلية الأسطورية » تسنى لنا أن نستجلى كثيرا مما ترمز اليه هذه الأسطورة التى ربطت اسلام عمرو ابن العاص سنة ثمان للهجرة برحلته الى بلاط النجاشى سنة خمس للهجرة !

ان الفارق بين هذين التاريخين حقيق أن يرشدنا الى الشىء الكثير • وأول ما يرشدنا اليه أن اسلام عمرو لم يكن « انقلابا »

مفاجئا فى حياته ، بل تم ببطء شديد استغرق ثلاث سنين ! وكانت له قبل هذه السنوات الثلاث مقدمات ينبغى ألا تغيب عن بالنا عند الحساب •

لقد بدأ الانقلاب يوم أيقن عمرو ـ الذى يتقن رصد التغيرات فى الاجواء المحيطة به ـ أن كفة محمد راجحة رجحانا لا شك فيه • فآثر أن يكون بعيدا عن متناول يده حينما يتم له النصر •

وهذه الخطوة الأولى طبيعى أن تعقبها خطوات ، لا تدفعه الى جانب قريش الذى بدأ ـ فى هذه المرحلة الانتقالية ـ باعتزاله • فكأنه بهجرته أقام حاجزا مكانيا بينه وبين الاستمرار فى الجانب الخاسر • وهذا تمهيد لا بد منه للتحول من لدادة العداء الى حظيرة الولاء •••

وعلى مهل راح يرقب ما يحدث عن بعد ، وكأنما يبرىء ذمته باطنيا من التعجل بالانتقاض على حزبه القديم • ولم يصبر سنة واحدة ، بل صبر ثلاث سنين توالت فيها النذر بانتصار محمد وصحبه على طول الخط :

غزوة بنى الحبان

غزوة ذى قرد

غزوة بنى المصطلق

ثم كانت الحديبية •••

إسلام عمرو

كانت الحديبية سنة ست للهجرة ، وما كان فيها من الهدنة بعد بيعة الرضوان . وقد ظن كثير من الناس أن أمر محمد سيضعف بعدها ، وقد جاء في شروط ذلك الصلح ما أثار رجلا مثل عمر ابن الخطاب ، حتى قال لأبي بكر : على ما يرويه ابن اسحق :

« يا أبا بكر ! أليس برسول الله ؟ قال : بلى ! قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ! قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ! قال : فعلام نعطى الدنية في ديننا ؟ » .

ولم يكتف عمر بن الخطاب بهذا الذي قاله لأبي بكر ، بل « أتى النبي – على ما يرويه ابن اسحق ايضا – فقال :

– يا رسول الله ! ألست برسول الله ؟

قال : بلى !

قال : أو لسنا بالمسلمين ؟

قال : بلى !

قال : أو ليسوا بالمشركين ؟

قال : بلى !

قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟

قال : انا عبد الله ورسوله . لن أخالف أمره ولن يضيعنى !

ودعا النبى على بن ابى طالب فقال :

ـ اكتب ! بسم الله الرحمن الرحيم .

فقال سهيل بن عمرو (مندوب قريش) : لا أعرف هذا ! ولكن اكتب : باسمك اللهم !

فقال النبى : اكتب باسمك اللهم !

فكتبها ، ثم قال ، اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو ، فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ! ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ! فقال النبى : اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمدا من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه ! . .. وان بيننا عيبة مكفوفة (أى صدورا منطوية على ما فيها لا تبدى عداوة) وانه لا اسلال (سرقة خفية) ولا اغلال (خيانة) وانه

من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، وأنه من أحب ان يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه » •

ويبلغ المشهد المأسوى ذروته ـ ولا شك فى أن العرب تسامعوا به وسرت أخباره الى عمرو بن العاص فى منفاه الاختيارى ـ عندما برز فى هذه اللحظة التى يكتب فيها النبى الكتاب أبو جندل ابن سهيل بن عمرو ـ وكان قد أسلم وأصر القرشيون على تكبيله بالحديد ورده اليهم ـ يقول ابن اسحق :

« فدخل على الناس (أى المسلمين) من ذلك أمر عظيم ، حتى كادوا يهلكون ، وقام سهيل الى ابنه ابى جندل فضرب وجهه وأخذ بتلبيبه ، وجعل ينتره بتلبيبه ويجره ليرده الى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشرة المسلمين ! أأرد الى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟ فزاد ذلك الناس الى ما بهم ، فقال النبى : يا أبا جندل ! اصبر واحتسب • فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ! انا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله • وأنا لا نغدر بهم ••• » •

فهل يستغرب أحد وقد رضى النبى هذا الموقف أن تزداد شوكة قريش قوة ؟

بل حدث المعكس !

يقول الزهرى : « فما فتح فى الاسلام فتح قبل الحديبية كان أعظم منه . انما كان القتال حيث التقى الناس • فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وآمن النـاس بعضهم بعضا والتقـوا فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، فلم يكلم أحد بالاسلام يعقل شيئا الا دخل فيه • ولقد دخل فى تينك السنتين مثل من كان فى الاسلام قبل ذلك أو أكثر ! » •

يقول ابن هشام : « والدليل على قول الزهرى أن النبى خرج الى الحديبية فى ألف وأربعمائة فى قول جابر بن عبد الله • ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين فى عشرة آلاف ! » •

وفى سنة سبع للهجرة وقعت غـزوة خيبر وبها انهد آخـر ركن لليهود أحلاف قريش • وأقوى أهل الكتـاب فى الحجاز • وبذلك بقيت قريش وحدها فى مواجهة محمد •••

وفى سنة سبع أيضا كانت عمرة القضاء •

وما بين هذه الاحداث كان العرب يقبلون على الاسلام اقبالا واضحا • وتمت فى هذه المدة أيضا عملية « التحول » من النقيض الى النقيض على مهل •••

ومثل عمرو يحسن تقدير المواقف الحربية والسياسية ، ويعلم ان ثمرة « الفتح » قد نضجت وحان قطافها بيد النبى •

وبذلك لم يبق أمام عمرو الا أن يسلم ، فان تأخر عن هذا

الوقت كان مفرطا فى رأى نفسه ، وليس فى التأخير بارقة رجاء ..

ولكن « العقلية الأسطورية » تأبى ان تتعمق « النقلات النفسية » فى باطن السريرة هذا التعمق ، وتأبى الا ان تبرزها فى كيان خارجى محسوس تليق فخامته وجسامته بفخامة الشخصية التى ينصب عليها الاعظام .

فتكون قصة الصدام المزعوم مع النجاشى . ثم لا يليق بمقام رجل كعمرو أن يكون مبشره بالاسلام وهاديه اليه وآخذ بيعته رجل أقل من ملك الاحباش !

والآن نترك هذه « الهالة » الأسطورية جانبا ، وليست بنا اليها حاجة ، والتفسير حاضر بين يدينا من مسار الأحداث الطبيعية من طريقة عمرو فى التفكير والتقدير والتدبير ...

ونتبع عمرو بن العاص فى رحلته قافلا ليلحق بقافلة الاسلام التى صارت قاب قوسين أو أدنى من سحق آخر أعدائها ، والسيطرة على الجزيرة العربية بأسرها ..

يروى ابن اسحق على لسان عمرو بن العاص :

« فخرجت من الحبشة عامدا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأسلم . فلقيت خالد بن الوليد ، وذلك قبيل الفتح (فتح مكة سنة ثمان للهجرة) وهو مقبل من مكة ، فقلت : اين تبغى يا أبا سليمان ؟ قال خالد : والله لقد استقام المنسم (أى تبين الطريق) وان الرجل

لنبى ! اذهب والله فاسـلم ! فحتى متى (أتأخـر ؟) فقلت : والله ما جئت الا لأسلم ! »

وروى ان خالد بن الوليد قال لنفر من رجال قريش :

ـ ان محمدا قد ظهر على العرب والعجم ، فلو قدمنا عليـه واتبعناه فان شرفه شرف لنا ...

وانه قال ايضا :

ـ انما نحن الآن بمنزلة ثعلب فى جحر لو صب عليه ذنوب (دلو) ماء لخرج !...

ويستطرد عمرو فى رواية ابن اسحق :

« فقدمنا المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتقـدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع . ثم دنوت فقلت : يا رسول الله . انى أبايعك على أن يغفر لى ما تقدم من ذنوبى ولا اذكر ما تأخر ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عمرو بايع ! فان الاسلام يجب (يلغى) ما كان قبله . وان الهجرة تجب ما كان قبلها . فبايعت ثم انصرفت ! »

وفى رواية أخرى للزبير بن بكار ، وأيد هذه الرواية ابن عساكر عن محمـد بن حفص التيمى : ان عثمـان بن طلحة كان معهما ، وان عمرو بن العاص قال :

« وكنت أسن منهما ، فقدمتهما لاستدبر أمرهما ، فبايعـا على

أن يغفر لهما ما تقدم من ذنوبهما ، فأضمرت أن أبايعه على ماتقدم وما تأخر • فلما بسط يده قبضت يدى ! فقال عليه الصلاة والسلام : مالك يا عمرو ؟ قلت : أبايعك يا رسول الله على ان يغفر لى ما تقدم من ذنبى • قال : ان الاسـلام والهجرة يجبـان ما كان قبلهما • فبايعته ، والله ما ملأت عينى منه وراجعته بما أريد حتى لحق ربه حياء منه ! » •

وهذا أشبه بطبيعة عمرو العملية •

أما والبيعة تجب وتلغى كل ما كان قبلها ، فلنا اذن أن نقول ان صفحة جديدة فتحت فى حياة عمرو •

محطّم الأصنام

أترى غاب عن عمرو أن النبى مطلع على الخافى من سريرته والبادى من خلائقه ؟

لا نظن !

فمما يروى عن عمرو انه ظل يقول حتى نهاية عمره :

« والله ما ملأت عينى منه وراجعتـه بما أريد حتى لحق ربه حياء منه ! » •

وعن ايثار النبى اياه بالثقة فى كثير من الأمور ، وهو الذى لم يسلم الا قبيل الفتح ، وقد اصبح المشركون ـ على حد تعبير خالد ابن الوليد ـ بمنزلة ثعلب فى جحر لو صب عليه دلو ماء لخرج ! ـ كان عمرو يقول :

« والله ما أدرى أكان ذلك من النبى حباً لى ، أم استعانة بى !

فالنبى عنـده كان احصف من ان يعتبـره كالســابقين من المهاجرين الذين تعرضوا للايذاء فى سبيل اسلامهم • وهو ـ قياسا على طبعه وما يعرفه من أمر نفسه ـ كان حريا الا يرى هذا الرأى

لو كان فى موضع ذلك النبى ! ومع هذا يشهد عمرو نفسه ان النبى وثق به منذ أول يوم فى اسلامه ، ويقول فخورا :

« ما عدل بى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخالد بن الوليد أحدا من أصحابه فى حربه منذ أسلمت ! » •

فهذا القائد النبى كان اعرف الناس بطاقات من تحت أمرته من الرجال • وهو بمكانته العليا فوقهم حقيق حين يرفعهم الى مستوى الثقة ان يحفزهم الى الاستماتة لاستحقاق ثقته التى يبذلها لهم ، يبادئهم بها فى احسان ظن ليس أفعل منه فى تربية البشر صغارا وكبارا ، وفى ابتعاث قدراتهم الكامنة وتسابقهم الى ان يكونوا عند الذى أسلفه من حسن ظنه بهم •

فماذا كان من آيات هذه الثقة • أو لنقل حسن الظن ؟

أسلم عمرو قبيل الفتح ـ مثلما أسلم خالد بن الوليد الذى قدم المدينة معه ـ وصحبا النبى مثلما صحبه سائر رجالات المسلمين يوم فتح مكة • ودالت دولة الأثان فى عاصمة الأوثان • وطهرت منها الكعبة • وصدر أمر النبى الى كل أهل مكة ألا يدعوا فى بيوتهم شيئا من الأصنام ، بل يحطمونها تحطيما • وتكون تلك هى الآية على أن من حطم الأصنام من أهل مكة قد آمن حقا بالله واليوم الآخر • ومن لم يحطمها فهو اذن باق على الشرك خارج من العهد الذى شمل به النبى من أسلموا يوم الفتح وقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء •••

ولكن أرباض مكة كانت بها أصنام ، فكان لا بد ان يرسل النبى من قواده من يهدمها ...

وفى حصافة نفسية تثير الاعجاب انتقى النبى لهذه المهمة أولئك القواد أنفسهم الذين كانوا الى أسابيع قليلة من أهل الأوثان ليكونوا حجة على من أسلموا يوم الفتح ولعل فى قلوبهم بقية شرك . وقع اختياره على خالد بن الوليد ليهدم العزى .. وعلى عمرو بن العاص ليهدم سواع ...

وسواع صنم اختصت به هزيل . وهو على نحو خمسة كيلومترات من مكة . كان من معالم الحج وشعائره فى الجاهلية . يذهب اليه الحجيج ويقدمون اليه القرابين والنذور . وكان للصنم سادن (أى خادم) وخزانة تودع فيها النذور كى تنفق فى الأغراض المخصصة لصيانة المعابد وخدمتها وأجور العاملين عليها .

ومما يجدر بالذكر أن قبيلة عمرو بن العاص (بنى سهم) كانوا نظار تلك الحبوس . أو أوقاف الجاهلية ، واليهم أمر نذورها وأموالها المحجرة (أى الموقوفة) ...

وبعد أيام من الفتح . ولعل ذلك غداة الفتح مباشرة . فالفتح قد تم فى العشرين من رمضان سنة ثمان للهجرة . وفى هذا الشهر بعينه خرج عمرو بن العاص فى نفر من المسلمين تحت امرته لهدم سواع . وعلى لسان عمرو تروى تفاصيل هذه المهمة :

« فانتهيت الى ذلك الصنم وعنده سادنه ، فقال لى : ماذا تريد ؟ فقلت : أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهدمه ! قال : لا تقدر ! قلت : لماذا ؟ قال : تمنع ! (أى يمنعك من ذلك ما لهذا الصنم من قوة خارقة للطبيعة من قبيل ما يتمتع به الآلهة) قلت : حتى الآن أنت على الباطل ؟ ويحك ! وهل يسمع أو يبصر ؟ ثم دنوت منه فكسرته . وأمرت أصحابى فهدموا بيت خزانته فلم نجد فيها شيئا . ثم قلت للسادن : كيف رأيت ؟ قال : أسلمت لله ! » .

وفى هذه الرواية القصيرة اكثر من باعث واحد على التأمل..

فاختيار عمرو بن العاص السهمى له معناه . ويتضح هذا المعنى مما ورد على لسان عمرو نفسه عندما هدم بيت خزانة الصنم فاذا هى خاوية . والسهميون كانوا المهيمنين على تلك الأموال والنذور ، كى يعلم الملأ ـ بشهادة شاهد من أهلها ! ـ أن تلك الخزائن كانت خاوية ، وأن الأمناء عليها كانوا يسخرون من الناس ويستغلون غفلتهم وايمانهم الغبى بتلك الأوثان لابتزاز أموالهم وانفاقها فى ملذاتهم الشخصية .

وأما عمرو نفسه فيبدو ها هنا قاطع السخرية بالأوثان كافرا بها فى غير تردد . وهذا يسوقنا الى حديث آخر :

أكان عمرو بن العاص فى أى وقت من حياته مؤمنا بتلك الأصنام ؟

لا نخال احدا فى حدة ذكاء عمرو وحصـــافته وتدقيقه فى مراجعة الأمور وقياس باطنها بظاهرها ونفاذ فراسته يمكن أن يؤمن فى أى وقت بما وصـفه حين وصف سواع : بأنه « لا يســمع ولا يبصر » ...

وهنا يبرز سؤال أو تساؤل :

ما الذى دعا مثل عمرو بن العاص اذن الى البقاء على الشرك ومحاربة النبى وعدم الايمان بما جاء به اكثر من عشرين عاما ؟

ليس من الضرورى ان يكون المدافعـون عن الأصنام مؤمنين بربوبيتها .

ورب سائل : وما يدعوهم اذن للدفاع عنها بالنفس والنفيس أعواما تطول الى العشرين أو تزيد ؟

والجواب هنا حاضر من طبيعة العلاقات والنظم داخل المجتمع نفسه :

ان الأوثان بالنسبة لهؤلاء الأذكياء ليست عقيدة يؤمنون بهـا ايمانا دينيا . ولكنها « شعار » ـ ان شئنا استخدام لغة العصر الحديث فى محـافل الســياسة ـ تتبلور تحته مجمـوعة متكاملة من النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . انها « الواجهة » لبناء اقتصادى اجتماعى . ولذا فمن الطبيعى أن يحس كل من لهم مصلحة فى هذا البناء يحرصون على دوامها أن أوجب الواجبات عليهم الدفاع

عن هذه « الواجهة » الوثنيـة ، لا من أجل ذاتها ، بل حفاظا على كيان البناء بأسره أن ينهار بانهيار هذه الواجهة •

ونقول من يحرصون على مصالحهم فى هذا البناء الاجتماعى الاقتصادى ، ولا نقول كل من له مصلحة فى هذا البناء الاجتماعى الاقتصادى • فقد يكون للمرء مصلحة ذاتية مادية فى بناء اجتماعى معين ، ولكنه لا يحرص على هذه المصلحة لأنها عنده أقل أهميـة بكثير من « القيم » الخلقية أو الفكرية • ولعله من الجائز أن نسمى هذا الفريق بأصحاب المبادىء أو المثاليين وأن نسمى الذين لا يهتمون الا بمصالحهم الشخصية وامتيازاتهم الفردية والطبقية بالنفعيين •

ثم لا ننسى أن الأوثان كانت « الشعار » الذى به يسـتنزف هؤلاء الأذكياء أموال السذج ويسوسونهم خاضعين باسمها •

وهذا « الموقف » الفكرى من جانب الاذكياء : موقف عـدم الايمان بالأوثان من حيث هى « آلهة » حقيقيـة مع الاسـتماتة فى الدفاع عنها حفاظا على البناء الاجتماعى الاقتصادى القائم على أساسها موقف يفتح ثغرة كبيرة فى « الجدار النفسى » ـ ان صح هذا التعبير ـ لدى أولئك الأذكياء الحصفاء •

فهم لا يؤمنـون فى سريرتهم بالأصنام وان دافعـوا عنهـا • وموضع الاعتقاد لديهم خال • والطبيعة تأبى الخواء • فهم ـ وان كانوا لا يدرون ذلك ـ مهيئون نفسيا لاستقبال عقيـدة تملأ هذا الفراغ ، ولا تكون مرفوضة لدى العقل الذكى الحصيف •••

وهذا بالضبط ما جعلهم ــ نفسيا ــ طوال الوقت فى مرحلة انتقالية لا شعورية بين الكفر بالأصنام والايمان بالدعوة الجديدة ..

ولكن هذه المرحلة الانتقالية تطول وتقصر على حسب الاشخاص واستعدادهم النفسى وطريقتهم فى التفكير والشعور ، وتفاوتهم فى الاندفاع والحذر ..

وهذا يفسر ايمان من آمنوا بسرعة مثل أبى بكر ، وعثمان ابن عفان الذى كان من أثرى التجار ذوى المصالح فى النظام الاجتماعى الاقتصادى القائم يومئذ ، وعمر بن الخطاب الذى كفاه مشهد واحد فى بيت أخته كى ينقلب من الكفر الشديد الى الايمان الشديد . ولا يكفى فى تفسير هذا الانقلاب المفاجىء ذلك الحدث الجزئى العارض ، وانما تفسيره أن هذا الحدث هو « القشة التى قصمت ظهر البعير » كما يقولون، بعد أن كانت العوامل اللاشعورية التى أشرنا اليها قد فعلت فعلها فى مسارب الوجدان ...

أما عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وأمثالهما فكان لا بد لهما من زمن أطول . يثبت فيه بما لا يدع مجالا لمزيد من المطاولة والمغالطة أن هذا البناء القائم على ألوهية يعلمون أنها زائفة لن يستطيع الثبات طويلا بأى حال من الأحوال للعقيدة الجديدة التى تدعو لبناء جديد على أساس جديد ...

وقبيل غرق السفينة هجرها الملاحون الحصفاء فى زوارق

النجاة الى بر الأمان ، حيث أثبتت العقيدة الجديدة «بالبرهان العملى» انها تقيم نطاقا جديدا وطيد الأركان •

و « البرهان العملى » هو البرهان الوحيد الذى لا يدحض لدى أصحاب التفكير العملى من أولئك الأذكياء والحصفاء ، وذوى الكفايات الفردية الخارقة •

وهذا الفريق من الناس أفضل على كل حال ممن دخلوا العقيدة بعد غرق سفينة النظام القائم على الأوثان فعلا ، كالمؤلفة قلوبهم •••

ولهذا الفريق سمة أخرى : أن العقيدة الجديدة التى أثبتت بالبرهان العملى نجاحها تملأ فعلا فراغ الاعتقاد الذى كان خاويا لدى هؤلاء الحصفاء • ويرون فى أمجاد الدين الجديد فخرا لهم • و لايتسنى لهم الاستمتاع بهذا الفخر الا اذا تغلغلت العقيدة الجديدة فى نفوسهم وأمدتهم بالحماسة التى تمتص أمجاد الدين المنتصر وتتغذى بها وهى تحس أنها أمجادها الشخصية الى حد كبير • وبذلك يتم الامتزاج بين « أنا » و « نحن » فى القصيدة الجديدة • ومع كل نصر جديد يزداد ذلك الامتزاج عتوا ، وتزداد الحماسة تأججا •••

ولا شك أن ذلك كان احساس عمرو بن العاص وهو يحطم الوثن « سواع » ، ويهزأ به وبايمان سادنه •

فالقائد مسئول عن احراز النصر أمام من ندبه للقيادة .

والقائد مسئول عن جنوده ينبغى الا يهلكهم ما لم تكن احتمالات النصر معقولة . فلئن كانت كل موقعة حربية مجازفة . فالقائد المحنك حقا هو الذى يحسن ما يسميه بعض الناس بلغة هذه الأيام « المجازفة المحسوبة » .

والخوف هنا على أمانة السياسة . وأمانة الدين . وأمانة حياة جنوده التى ينبغى ألا تضيع هدرا فى غير طائل .

وها هنا ملحظ للتفريق بين التهور الطائش والتضحية :

فالتضحية ليست مطلبا لذاتها ! وانما هى أقصى البذل فى سبيل ما هو أغلى من الحياة : ألا وهو انتصار المبدأ القومى أو الدينى أو الفكرى او الانسانى ـ على حسب الاحوال ـ أما أن تكون التضحية فى موطن لا أمل فيه للنصر ، فهى فى الغالب بلاهة تصل الى حد الجريمة ان بدرت من قائد مسئول .

وبكل معنى من هذه المعانى كان عمر حقيقا أن يخاف . وكان حقيقا أن يحمد له هذا الخوف !

ولكن للمسألة جانبا آخر بعد هذا كله :

فالقائد حديث العهد بقيادة المسلمين حقيق أن يشعر بالخوف من ان يستهين هذا الجند بشجاعته ، ولا يخلو عامة الجند من اعتبار الاقتحام لونا براقا من الشجاعة . فلو اقتحم بهم لنفى عن نفسه

مظنة « الخوف » بالمعنى الساذج الرخيص ، وهو أقرب الانواع الى فهم العامة من سواد الناس •

وثمة عامل آخر قد يزيد من الشعور عمرو بن العاص بالحرج امام هؤلاء الجنود الذين يعلمون حداثة عهده بالاسلام وقديم عهده بمناهضة الاسلام بالدهاء والحسام •• ونعنى بذلك شدته عليهم أثناء الزحف الى ذات السلاسل واصراره فى البرد القارص أن يكمنوا بالنهار ويسروا بالليل ••• فما أحوجه الى مساندة هذه الشدة بالظهور بمظهر من لا يبالى عدوا ولا يرهب خصما •••

ولكن عمرو بن العاص لم يقم وزنا لهذا الاعتبار ، وكان همه فى سلامة تقدير موقفه بحساب عسكرى دقيق •••

وعندئذ يتبلج أمامنا هذا « الخوف » فى صورة شجاعة أدبية من طراز رفيع لا يتسم به الا المطبوعون على القيادة أو من لا تأخذهم فى ثقتهم بأنفسهم شائبة من الشعور بالنقص أو الحرص على سمعة القدرة ، لأنهم ممتلئون بشعورهم بقدرتهم الحقيقية فلا « يخافون » بعد ذلك على سمعتهم الوقتية ، فبصرهم معلق بالغاية التى لا يقام لشىء سواها فى أخلادهم وزن •

وهكذا القواد المطبوعون حقا ، لا من ارتفعوا الى مرتبة القيادة فى غفلة من الزمان !

ونعود الى رواية ابن اسحق :

« فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ابا عبيدة ابن الجراح فى المهاجرين الأولين ، وفيهم ابو بكر وعمر ، وقال لأبى عبيدة حين وجهه : لا تختلف ! فخرج ابو عبيدة حتى اذا قدم عليه قال له عمرو : انما جئت مددا لى . قال ابو عبيدة : لا . ولكن على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه ! وكان ابو عبيدة رجلا لينا سهلا ، هينا عليه أمر الدنيا ، فقال له عمرو : بل أنت مدد لى ! فقال ابو عبيدة : يا عمرو ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى : لا تختلفا ! وان أنت عصيتنى أطعتك ! قال : فانى الأمير عليك ! وأنت مدد لى ! فقال ابو عبيدة : فدونك ! فصلى عمرو بالناس ! ».

وهنا اكثر من ظاهرة تدعو للتريث . والتأمل ...

الظاهرة الأولى تعزز ما نعرفه فى عمرو ـ ذلك الطموح ! ـ من حب الرئاسة والامارة .

وحب الرئاسة هنا قد اصطدم بامتحان عسير : فالموقعة كما أشرنا آنفا فرصته لفخر النصر الذى يفتح به مستقبلا زاهرا فى خدمة دولة الاسلام الذى دخل فيه منذ قليل . وهذا المدد فيه من؟ فيه خيرة المهاجرين الأولين . فيه أبو بكر ، فيه عمر . وأميره أبو عبيدة . وهم من يرشحهم تاريخهم وقديم سابقتهم فى الاسلام لخلافة النبى . وهم اذن يمثلون كل ما يناقض صفات عمرو بن العاص : عراقتهم فى الاسلام وسرعة استجابتهم له نقيض تقاعس عمرو عن الاسلام اكثر من عشرين سنة ، وايغاله فى ايذاء المسلمين

ذلك الردح الطويل • فهم اذن أحرى الناس أن تكسف شمسهم شمسه • وحق أبو عبيدة بهذا التأمير على المدد ، وفيه هؤلاء المهاجرون الأولون ، حق يلقى بعمرو بن العاص فى الظل ـ كما يقولون ـ ولا سيما أنهم جاءوا بعد ان عجز عن مواجهة الموقف بدونهم ، وبذلك تضيع على عمرو الفرصة التى كان يعلق عليها الآمال العراض •

ولكن أكان عمرو بن العاص يفلت هذه الفرصة بسهولة ؟

ومن حسن حظه أن النبى كان يعرف النسيج النفسى لعمرو ابن العاص • ويدرك بلا شك ما تمثله له هذه الفرصة التى اتاحها النبى له ليرضى حبه للامارة وليشعره ان الاسلام يتيح له تحقيق طموحه بطريق حلال مجيد اكثر مما اتاح له الشرك تحقيق آماله فى السيادة والتفوق والغنى ••• ولذلك كان النبى قد أوصى أبا عبيدة حين يقدم على عمرو أن يتطاوعا • فان عصاه عمرو أطاعه أبو عبيدة • وهى خطة أشبه بما اتبعته حصافة الرسول مع المؤلفة قلوبهم • فكأنه يتألف قلب عمرو على حديث عهده بالاسلام بالشىء الذى يرضى نفسه ، ألا وهو الامارة والمجد على أن يثبت جدارته بذلك ••• أما ابو عبيدة فهو واثق بولائه وايمانه •

ومن جهة أخرى لم يكن من الكياسة أن يبدأ النبى ابا عبيدة المجاهد المهاجر القديم بأنه يبعثه مرءوسا لعمرو بن العاص « ابن

الامس فى الاسلام » ، فكان الاحجى ان يقول له « تطاوعا » وبذلك يترك زمام الموقف فى يد عمرو ...

واهتبل عمرو الفرصة كاملة ، وعض على امارته بالنواجذ . ولم يقبل « الحل الوسط » الذى اقترحه أبو عبيدة أن يكون كل منهما على الذين أمره النبى عليهم ، وأصر على القيادة العامة الشاملة ...

وما من شك فى أن القيادة العامة الموحدة أفضل فى ادارة المعارك ، وأقرب الى معنى القتال العسكرى بالمعنى الفنى من القيادات المتعددة فى معركة واحدة أو جبهة واحدة . وبذلك التقى حب عمرو للطموح والامارة مع الهام القائد المطبوع بالمعنى الحديث .

ومن المفارقات التى تستوقف النظر أن هذا الخلاف على القيادة انتهى وكانت آية انتهائه أن « صلى عمرو بن العاص بالناس ! » ، وهكذا صلى عمرو حديث العهد بالاسلام اماما وصلى وراءه من ؟ صلى وراءه أقدم الناس عهدا بالاسلام واكثرهم حضورا لمشاهد الجهاد مع النبى وأبرز أصحابه وأهل ثقته !

وهذه حرية ان تزيد الايمان الجديد تغلغلا فى نفس عمرو ، وقد اتفقت فى أعماقه الحماسة للعقيدة ورضى نفسه بتحقيق آمالها فى ظل هذا الدين الجديد ، وهذا أنفى للصراع وأجمع لآفاق نفسه فى خدمة العقيدة !

وأدار عمرو بن العاص المعركة بمهارة كفلت للمسلمين النصر بعد قتال حامى الوطيس دام ساعات • ثم أقام عمرو فى موضع المعركة بعد فرار العدو ثلاثة أيام ، من غير أن يسمح للجيش بتعقب الفارين والاستيلاء على غنائمهم •••

وهذه واحدة سنعود اليها •

والأخرى انه فى هذه الأيام الثلاثة القارصة لم يسمح لجنوده أن يوقدوا بالليل النيران للاصطلاء ، مما ضاق به عامة الجند وشكوا أمرهم وما يجدونه من شدة البرد الى عمرو فزجرهم وتوعد من يوقد النار بأشد العقاب • ولما أرهقهم هذا الأمر الذى لا يفهمون له وجها شكوا الى الصديق ابى بكر ، فقال عمرو بن العاص فى اصرار وحدة : من أوقد نارا قذفته فيها ! ويقال انه اشتد فى الرد على أبى بكر وقال له : « انما انت جندى تسمع لى وتطيع ! » فلم يسع الصديق الحليم الدمث الا السكوت •••

ونتعرض للمسألة الأولى فنقول أن الغنائم والأسلاب كانت فيها لعمرو بن العاص مصلحة مباشرة ، ولعلها ما عبر عنه النبى بأنه « زعبة صالحة من المال » فلماذا لم يسمح عمرو للجنود بتعقب المنهزمين من بنى قضاعة ؟

قال بعض الكتاب انه تذكر صلة الرحم ، وأن قضاعة أخوال أبيه العاص بن وائل ، ولسنا نخال الأمر كذلك • وانما الأحجى

تفسيره الذى قاله عمرو بن العاص نفسه حين عاد الى المدينة وشكا الجند حرمانهم من الأسلاب الى النبى ، فسأله النبى لماذا لم يسمح لهم بتعقب المنهزمين والاستيلاء على الغنائم الشرعية منهم • ولعل الناس كانوا قد لاكوا أمام النبى تهمة اشفاق عمرو على أخوال أبيه• ولكن الرد الحاسم جاء على لسان عمرو كنا نحارب فى بلادهم يا رسول الله وقد خفت أن يكون لهم مدد فينقض على المسلمين اذا تبعوهم وبعدوا عن مواقعهم » •

وهذا تدبير جدير بقائد مطبوع • وهى صفة عمرو • وهى أقرب لتفسير تصرفه فى هذه المسألة ، لأن صيانة النصر الباهر أعز عليه من أسلاب كان سيصيب منها ما يرضيه• وهذه التضحية ـ على حبه للمال ـ تحسب له فى جانب عبقرية القيادة بأرفع معانيها •

ويعزز هذا التأويل قول عمرو أيضا عندما سأله الرسول عن شدته على جنوده ومنعه اياهم من ايقاد النار واصراره على ذلك والغلظة لأبى بكر حين رجاه فيه ، أنه كان يحس من شدة البرد ما أحسوه ، ويتوق الى ايقاد النار كما تاقوا ولكنه خشى أن يدرك الأعداء من الضوء قلة عدد جنوده نسبيا فيكروا عليهم تحت جنح الليل فينقلب النصر هزيمة نكراء •••

تفسيران للمسألتين ينبعان من عقلية واحدة • هى عقلية القائد المطبوع •

قائد طموح مشغوف بالرئاسة والامارة . ولكن هذا ليس بذى بال وانما المهم أنه كان مطبوعا على القيادة ، جديرا حقا بالرئاسة والامارة .

وهذه تشفع لتلك فالكارثة حقا أن يتمسك بالامارة من ليس لها بأهل . أما أن يسمو اليها بنظره من طبع عليها فلا جناح عليه ، ولا ضرر فى ذلك على الأمة ، ما كانت امارته لتحقيق خيرها ..!

وحسب عمرو ذلك من عذير ... بل حسبه ذلك من موجب للثناء الكثير ...!

سفير محمد

جندى قريش صار قائد محمد

والمدافع عن الاوثان صار هادم الاوثان

وآن لسفير قريش الى ملك فى الكيد للاسلام ، أن يكون سفير محمد يدعو ملكا وشعبه الى الاسلام ...

ولئن خابت سفارة عمرو حين ذهب باسم قريش الى ملك الحبشة وباء بالخذلان المبين . فقد رأينا أنه لم يقصر فى الكيد والدهاء ، وأن خذلانه جاء من عامل خارج عن ارادته ولم يكن فى الحسبان . ونعنى به شخصية النجاشى واستقلال تفكيره وخلوص ضميره على غير المعهود فى امثاله من العوامل فى ذلك الزمن ، وتلك البيئة ...

وسنرى الآن مقدار براعة عمرو بن العاص وقد صار سفير « المعسكر الآخر » ، والى أى حد كان توفيقه من صنع يده والى أى حد ساعدته الظروف ...

ولكن الذى لا شك فيه ابتداء أن قدرة عمرو على السفارة

وأساليب الدهاء والكياسة ومناورات السياسة لم تكن محل خلاف . فلهذه المهمة ندبه قومه حين كان مشركا . ولهذه المهمة أيضا ندبه النبى حين صار الى الاسلام . وهذه آية لا شك فيها على أن الدهاء وحسن المدخل والقدرة على المفاوضة والمناورة والاقناع كانت صفات بارزة فيه - معروفة لكل من عاشروه ، وبها اشتهر بين العرب .

والآن ما تلك السفارة ؟

فرغ النبى من فتح مكة فى أواخر شهر رمضان سنة ثمان للهجرة وأخذ العرب يدخلون فى دين الله أفواجا . وبعد نحو شهرين ، فى ذى الحجة سنة ثمان رأى النبى أن يبعث بكتبه الى الملوك والأمراء من العرب وغير العرب يدعوهم الى الاسلام ، وقد آن بعد خضوع قريش وأحلافها ودخولهم فى الاسلام أن تتجه دعوته الى « الناس كافة » .

ووقع اختيار النبى على عمرو بن العاص ليكون سفيره الى ملك عمان (ببلاد البحرين) والى أخيه ، وهما جيفر بن الجلندى وعباد ابن الجلندى . وكان أولهما واكبرهما هو الملك وأخوه عباد منه بمثابة الوزير وولى العهد . وقد وجه النبى اليهما الخطاب كليهما معا .

ونص كتاب النبى اليهما : « السلام على من اتبع الهدى . أما بعد فانى أدعوكما بدعاية الاسلام . أسلما تسلما ! فانى رسول الله

الى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين .
وانكما ان أقررتما بالاسلام وليتكما ، وان أبيتما أن تقرا بالاسلام
فان ملككما زائل ، وخيلي تحل بساحتكما وتظهر نبوتى على
ملككما ! » ..

وحمل عمرو بن العاص سفير محمد كتاب نبيه الى عمان ..

ولكن قبل أن نرى ما فعله عمرو هناك الى أن توج جهده
السياسى بالتوفيق الكامل ، يحسن أن ننظر فى فحوى هذه السفارة،
ومضمون هذا الكتاب ، لنرى الى أى حد أتاح هذا المضمون لعمرو
ابن العاص فرصة التوفيق فيما لم يحصد فيه عندما أسفر لقريش
الا الاخفاق .

وبعبارة أخرى : الى أى حد كانت سفارته للاسلام مدينة
للاسلام نفسه بالنجاح ؟ أو الى أى حد كان مضمون الرسالة النبوية
وظروف الاسلام بعد الفتح و « دخول الناس فى دين الله أفواجا »
عوامل فعالة فى انجاح مسعى عمرو بن العاص ؟

ان محمدا حين أرسل عمرو بن العاص فى هذه المهمة كان
القوة العظمى فى الجزيرة العربية : القوة العظمى التى لم ينبغ لأحد
مثلها من قبل فى تلك الجزيرة التى كان أمرها مفرقا فى قبائل
وعشائر بعضها لبعض عدو . فاذا الآن دولة موحدة ، لها زعيم واحد
وقائد سياسى واحد وعسكرى واحد لا ينازعه سلطانه أحد ، لأن
سلطانه فوق مستوى البشر، فهو لسان السماء وظل الله على الأرض.

وكل من فى دولته مأمور بطاعته كما يطيع الله • يفديه بحياته وتهون عليه حياته فى سبيل ما يأمره به تطلعا الى الجنة التى وعد الله المتقين من عباده وأعدها للشهداء •••

ظاهرة هى الأولى من نوعها فى بلاد العرب • وقوة ليس لأحد بها قبل • ولو كان لأحد بها قبل لكانت قريش وأحلافها أولى بذلك فى كفاح طال كل تلك السنين وكان ختامه ذلك الفتح المبين• فتح مكة عاصمة الاوثان ، وتطهير الكعبة من الأصنام ، ووقوف محمد يمن على أعداء الأمس العتاه من « أخ كريم وابن أخ كريم » • فيقول : « اذهبوا فأنتم الطلقاء ! » ••

ان سفير محمد فى هذه الظروف الى ملك من ملوك العرب على أطراف الجزيرة له « وزن » وله « سند » ليس لسفير قريش الى ملك الأحباش المستقل الذى يفصله عن العرب البحر الأحمر ، وملكه فى قارة منفصلة •••

ثم ماذا يقول النبى فى رسالته ـ وهو تلك القوة الكبرى التى لا يقف اليوم أمامها شىء فى جزيرة العرب ـ وحقيق غضبه أن يكون كالسيل الطامى يجرف أمامه أيما شىء ؟!

انه يخاطب الملكين فلا يبدو لهما فى صورة المتعطش بدعوته الدينية الى سفك الدم ، ولا الى السلب والنهب وتوسيع رقعة الملك حبا فى الاستئثار بالسلطان • كلا ! فهو حريص على تأكيد أن الأمر

أمر دعوة الى عبادة الله • وأن وضعه وضع نبى يدعو الى الله وليس ملكا يطمع فى توسيع دولته • فلا خوف اذن على العرش من هذا الدين الجديد ، بل هما يغنمان بالدخول فى هذا الدين الجديد تأييد سلطانه لعرشهما وبقائهما فيه بغير خوف من « القوة الكبرى » التى نشأت فى جوارهما وليس لهما ولا لأحد بها طاقة !

وهذا بلا شك عامل له اغراؤه لأنه ينفى الخوف على العرش• بل ان النبى يقول صراحة : انكما ان أقررتما بالاسلام وليتكما !•• وبذلك يسرى عنهما ويدخل الطمأنينة على نفسيهما •

ويتبع الترغيب بالوعيد الذى يعلم انه اليوم حقيق ان « تصطك منه المسامع » ـ كما يقول نابغة بنى ذبيان ـ فيقول : « وان أبيتما أن تقرا بالاسلام فان ملككما زائل ! » وما هى بنبوءة كنبوءات الكهان ، لأنه يتبع ذلك بالتفصيل والتبصير بما لا يدع شكا لشاك : « وخيلى تحل بساحتكما » •

هى الحرب اذن ! وحرب محمد الآن ليست لها فى جزيرة العرب الا نتيجة واحدة • وما أمر فتح مكة بسر •••!

والنبى حريص فى الختام على أن يعيد تنبيه الملكين الى أن ذلك لن يكون طمعا فى ملكهما وسلطانهما وارضهما ، فهو نبى وليس طالب ملك • والى هذا الفارق الحاسم يشير النبى بقوله : « وتظهر نبوتى على ملككما » !

تأكيد بعد تأكيد ، لا بد منهما ولا غناء عنهما فى خطاب ملكين عربيين يريان خيل محمد تملأ البطاح ، ولا ترد له أمرا • ويريان سلطانه يمتد امتدادا رهيبا • وليس لمثلهما تصـــور لسلطان الا أن يكون ملكا أو طمعا فى ملك وتسلط •• ولا حيلة لهما فى المقاومة• ففتح الآمال فى هذا المقام ببقاء الملك لهما • وأن دعوة الدين الجديد دعوة ايمان وطاعة روحية وليست طمعا فى السلطان الدنيوى أمر له قيمته الكبرى فى التأثير النفسى على هذين الملكين العربيين على شاطىء الخليج العربى •••

وبهذا يتضح أن مضمون رسالة النبى ، وفحوى السفارة التى كلف بها عمرو بن العاص يختلف أشد الاختلاف عن فحوى سفارة قريش التى حملها عمرو بن العاص من قبل الى النجاشى لتسليم المهاجرين المسلمين الى الحبشة •

ها هنا رهبة رهيبة وقدرة لا يقف أمامها شىء ، والى جوارها طمأنينة كاملة وأمن آمن لمن سمع وأطاع ودخل فى الاســـلام ، لا ينقض سلطانه ولا يتهدد ملكه ، ولا خوف عليه من هذه الرهبة التى صارت تنخلع لها القلوب ••

ونكاد نقول أن السفارة فى هذه الحالة مضمونة النجاح ، وأن كل المطلوب من السفير ألا يكون أخرق يفسد بسوء التعبير وحمق التدبير حكمة من أرسله •

وبعبارة أخرى كانت رسالة النبى التى حملها عمرو بن العاص سلاحا سياسيا كاملا ، تمت له قوة الترغيب وقوة الترهيب . وان الدور الذى اضطلع به عمرو أن يحسن استخدام هذا السلاح الفذ بحيث يتيح له تأثيره الكامل فى نفس الملك وأخيه ، ..

وسنرى كيف أحسن عمرو كذلك غاية الاحسان ، وعزز ما له من شهرة بالدهاء والكياسة وحسن الفراسة .

لقد اعتبرها عمرو معركة ، ، وبحنكة القائد المطبوع رسم لها خطة بعد أن درس « أرض المعركة » واحكم « تقدير الموقف » من جميع الوجوه !

وجد أخا اكبر على العرش ، ورأى أخا أصغر بمثابة الوزير وولى العهد .

وأدرك بخبرته وفراسته أن للملك عزة تجعل فى صاحبه شماسا تلقائيا ازاء أى دعوة للطاعة ، مهما كانت روحية . فالملك جيفر بن الجلندى حقيق اذن أن تأخذه « العزة بالملك » ابتداء . ولا تطيب نفسه لأول وهلة على الأقل ـ أن يستجيب للخضوع ـ ولو روحيا ـ وهو الذى أدخل الملك فى روعه أنه لا معقب على قوله ، ولا سماء فوق سلطانه . ومظهره أمام رعيته ـ وأمام نفسه بحكم العادة ـ مظهر من ليس لخيلائه حد .

فهذا اذن ليس أضعف الطرفين . والقائد المحنك هو الذى

يتبين أضعف المواطن فى جبهـة خصمه ويجعل عليهـا كل ثقـل هجومه .

والأخ الأصغر تعود أن يكون « خاضعا » لأخيه ، وان كانت له فى النسب الرفيع عزة ، فهى ليست عزة مطلقة غير مسومة . فان كان أحد الأخوين أدنى الى قبـول ذلك الخضـوع الروحى الذى يطلبه اليهما ، فهو الأخ الأصغر .

ثم ان الأخ الأصغر ليس بيده السلطان ، الا أن أمله كله فى أن يصير هذا العرش اليه يوما ما . والناس أدنى للتنازل عن بعض الأمل فى سبيل تأكيد سائر الأمل . لأن التنازل هنا تنازل عن شىء ليس حاصلا بالفعل فى اليد ، والمحـافظة على البـاقى محافظة على ما يجعـل للحيـاة طعمـا . ومتى اقتنع هـذا الأخ الأصغر - لأن مصلحته كلها فى الاقتناع ولا غضاضة عليه اطلاقا فيه ولا تنازل منه عن شىء مما بيده - كان عونا لعمرو على قناع الأخ الأكبر الجالس على العرش فعلا . وهكذا يهاجم عمرو أقوى موطن فى الجبهة وقد صار له حليف من « أهل الدار » أدرى بمداخلها واقدر على الاختلاء وأخبـر بما « يلين دماغ » من ينتظر منـه أن يلج فى الامتنـاع والغناء ...

ولا يمكن أن يدل « تكتيك » على دهاء قائد مطبوع على القيادة كهذا التكتيك .

وقد كان ما توقعه عمرو بحذافيره ، فان عباد بن الجلندى -

أصغر الاخوين ـ احسن الاصغاء لعمر ، ولا شك فى ان عمرو ابن العاص أحسن الترغيب وأحسن الترهيب ، ثم انتهى بكفالات الطمأنينة على الملك والأمان من كل خطر لو أنهما دخلا الاسلام • ووعد عباد عمرو بن العاص أن يمهد له الجو عند أخيه ، ثم يجمعه به •

ولا نشك في ان عبادا تحدث الى أخيه مليا قبل أن يدخل عمرو بن العاص عليه • ولكن ما توقعه عمرو بن العاص من شماس الملك وخنزوانته حدث أيضا على النحو الذى توقعه • فما ان دخل عليه عمرو وسلم اليه كتاب النبى وحدثه بما يدعوه اليه وما يغنمه من خير الدنيا والآخرة بالاستجابة له ، حتى حدثه الملك جيفر حديث من يريد المراوغة والامتناع ، ويجنح لتأييد موقفه فى ذلك بتسخيف موقف السفير نفسه ، فسأل عمرو بن العاص متى أسلم ؟ ولعله كان يعلم ذلك ، ويعلم أيضا ما كان من أمر أبيه ـ وما كان العاص ابن وائل مجهول الشأن بين قبائل العرب ـ فقد سأله بعد ذلك عن أبيه هل أسلم قبله أو مات على دين الجاهلية ؟

وما نشك أن عمرو بن العاص صدقه القول • وعندئذ سأله عن قريش كلها ماذا صار من أمرها ، فقال عمرو بايجاز من يريد ادخال الرهبة على محدثه وسد المسالك فى وجهه ملخصا الموقف بعد فتح مكة :

ـ هم بين راغب فى الدين أو مقهور بالسيف !

وهو كلام له مرماه الواضح فى هذا المقام : أن من رغب فى الدين أمره مفروغ منه ، أما من رغب عنه ونفر منه ـ كالملك جيفر فى هذا الموقف ـ فلم يجد له مناصا من الاسلام مجبرا على ذلك بحد السيف !

واياك أعنى فاسمعى يا جارة !

وكأنه كان يعنى حين اجابه عن نفسه ومتى أسلم : لتكن لك فى أمرى قدوة وعبرة ، فقد كنت ممن أكربوا أنفسهم بالاسلام رغبة فى الدين قبل ان تنزل بى القارعة فأدخله عنوة بغير خيرة ولا كرامة !

ولم يكتف بهذه الاشارة الواضحة ـ وما أشد فهم الملوك للايماء الخفى تحت ستار التهذيب وعذوبة اللفظ ـ فانتقل الى الوعد الصريح والوعيد السافر ، شأن الواثق بما وراء ظهره من قوة لا يقف أمامها شىء !

ـ وأنت ! ان لم تسلم اليوم وتتبع هذا النبى يوطئك الخيل ! فاسلم تسلم ! فيوليك على قومك ، وتبقى على ملكك مع الاسلام ، ولا تدخل عليك الخيل والرجال . وفى هذا ـ مع سعادة الدارين ـ راحة من القتال !

وكأنما ابتعث هذا « السهم الأخير » فى السفارة السهم الأخير فى عناد الملك واستكباره . أو لعله رد الفعل التلقائى لدى ملك

يواجهه سفير بالتهديد والوعيد ، فقال انه قمين ان يرد المسلمين عن ملكه ويخرج للقائهم قبل أن يبلغوه وينزل بهم هزيمة نكراء ...

ونخال عمرو بن العاص كان يعرف هذا الاندفاع التلقائى ردا على التهديد بغير تدبر ، فأراد أن يوقع الرعب فى قلبه بما اظهره من قلة المبالاة بقول الملك ، فانصرف من عنده غير مكترث ، مبديا الاشفاق على الملك وأسرته من عقبى هذا التهور الذى لا طائل تحته الا المجازفة بعرشه وعرش أسرته ولا خوف على هذا العرش لو نطق بالشهادتين ...

وبعد اندفاع اللحظة يأتى التفكر .

وكاد عباد أخو الملك معوانا على زيادة هذا التفكر بما راجع أخاه وهدأ من ثائرته وبصره بمزايا الاستجابة للاسلام مما يحفظ الملك ويحقن الدماء من هذه القوة العسكرية التى أنهارت أمامها كل مقاومة ولم تفلح فى دحرها حيلة .

وبعث الملك فى طلب عمرو ، وبايعه على الاسلام . ودخلت المملكة كلها فى الدين الجديد . وأرسل عمرو الى نبيه وزعيمه يبشره بما وفقه الله اليه .

وبذلك لم يصبح ملكا عمان مطالبين بشىء بعد اسلامهما الا ما فرضه الاسلام من الزكاة ، وقد رأى النبى بحسن فراسته أن يوليها عمرو بن العاض . وبذلك انتفع ماديا بثمرات نجاحه ، وظل

سفيرا لدى الملك الذى هيمن بذكائه على عقله ، فللعامل على الزكاة نصيب منها بحكم الشرع .

وهكذا وجد عمرو فى الدين فوق المكانة والمجد نعمة المال الذى عرفه الناس بحبه ، والذى هون عليه النبى أمر حبه ما دام حلالا طيبا ، حين قال له وهو يمسح على صدره :

ـ يا عمرو ! نعمّ المال الصالح للمرء الصالح ...

وظل عمرو على ولاية الزكاة والسفارة فى مملكة عمان الى أن مات النبى فى شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة .

فى محنة الردة

وما ان مات النبى حتى بويع ابو بكر . ولم يغير مما كان النبى قد رتبه من أمور السياسة والحكم والحرب ، وبلغ من حرصه على ذلك ان النبى كان قبل مرضه بقليل قد عقد لواء جيش فيه خيرة الصحابة لأسامه بن زيد ، وهو بعد شاب صغير السن وأمره أن يوطىء من « آبل الزيت » من مشارف الشام وراجعه قوم فى ذلك فلم يقبل النبى ان يستبدل به أميرا أسن منه ، وقال : « انه لخليق لها ـ أى حقيق بالامارة ـ وان قلتم فيه لقد قلتم فى أبيه من قبل ، وانه كان لخليقا لها » ... وتريث بعث اسامة الى ان ينقضى مرض النبى . ولكن النبى مات فى مرضه هذا .

يقول الطبرى فى رواية مرفوعة الى هشام بن عروة عن أبيه: « لما بويع ابو بكر رضى الله عنه وجمع الانصار فى الأمر الذى افترقوا فيه ، قال : ليتم بعث اسامة . وكانت العرب قد ارتدت اما عامة واما خاصة فى كل قبيلة ، ونجم النفاق ، واشرأبت اليهود والنصارى والمسلمون كالغنم فى الليلة المطيرة الشاتية لفقد نبيهم صلى الله عليه وسلم ولقلتهم وكثرة عدوهم . فقال له الناس : ان

هؤلاء جل المسلمين والعرب ــ على ما ترى ــ قد انتقضت بك ، فليس ينبغى لك ان تفرق عنك جماعة المسلمين ، فقال ابو بكر : والذى نفس ابى بكر بيده ، لو ظننت ان السباع تخطفنى لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يبق فى القرى غيرى لأنفذته ! »

وعن الحسن بن أبى الحسن البصرى قال : « ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بعثا على أهل المدينة ومن حولهم ، وفيهم عمر بن الخطاب . وأمر عليهم اسامة بن زيد ، فلم يجاوز آخرهم الخندق (حول المدينة) حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقف اسامة بالناس ، ثم قال لعمر : ارجع الى خليفة رسول الله فاستأذنه كى يأذن لى أن أرجع بالناس ، قال معى وجوه الناس ، ولا آمن على خليفة رسول الله وثقل رسول الله واثقال المسلمين أن يتخطفهم المشركون . وقالت الانصار : فان أبى الا أن نمضى فأبلغه عنا واطلب اليه ان يولى امرنا رجلا اقدم سنا من اسامة ! فخرج عمر بأمر أسامة ، وأتى أبا بكر فأخبره بما قال أسامة ، فقال أبو بكر : لو خطفتنى الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ! قال فان الانصار أمرونى أن ابلغك وانهم يطلبون اليك أن تولى أمرهم رجلا اقدم سنا من أسامة ، فوثب ابو بكر ــ وكان جالسا ــ فأخذ بلحية عمر ، فقال له : ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب ! استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن

انزعه ؟! فخرج عمر الى النـاس فقـالوا له : ما صنعت ؟ فقال : امضوا ..! ثكلتكم أمهاتكم ! ما لقيت فى سببكم من خليفة رسـول الله ! ثم خـرج أبو بكر حتى أتاهم فأشخصهم وشيعهم وهو ماش واسامة راكب ، فقال له اسامة : يا خليفة رسول الله . والله لتركبن أو لأنزلن ! فقـال : والله لا تنزل ووالله لا أركب !... حتى اذا انتهى قال : ان رأيت أن تعينني بعمر فافعل ! فأذن له ... » .

نقول هذا ونحن نوشـك أن نخوض فى حديث الردة التى بدأت فى أيام النبى الأخيرة ثم استشرت فى كل مكان من جزيرة العرب بعد موته ، حتى لقد ارتد اقوام من أهل مكة والمدينة . لنضع أمام أنظارنا صورة مجسمة للروح التى واجه بها أبو بكر الموقف بعد وفاة النبى ، وهى روح تتسم أول ما تتسم بالايمـان الشـديد والتشدد الذى لا يعرف الهوادة .

والآن لننظر فى تأويل هذا التشدد ، وفى دلالاته ، ومدى اثره فى الاحداث التى اعقبت ذلك ، وأهمها حروب الردة التى تولى جانبا منها صاحبنا عمرو بن العاص .

جزيرة العـرب انتقضت اطرافها وأوسـاطها . وصدمة موت النبى كان لها من الوقع على المسـلمين ما لا يمكن تصـور ابعـاده جميعا . فقد ظنوا انه ليس كالبشر يلم به طائف الموت . حتى ان عمـر بن الخطاب كان يصيح فى النـاس : « ان رجالا من المنافقين يزعمون ان رسول الله توفى وان رسول الله والله ما مات ولكنه ذهب

الى ربه كما ذهب موسى بن عمران فغاب عن قومه أربعين ليلة ! والله ليرجعن رسول الله فيقطعن أيدى رجال وأرجلهم يزعمون ان رسول الله مات !٠٠ حتى اذا قال ابو بكر « على رسلك يا عمر ! ايها الناس ! انه من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ٠ ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت ! وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ٠ أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ » فدهش عمر وكأنه لم يسمع بهذه الآية من قبل !

الى هذا الحد بلغ اثر صدمة وفاة النبى على المخلصين من أصحابه ومحبيه ، وكأن الجبال زالت عن مواضعها ٠ فهم فى هذه الحال اقرب الى الخوف والتخاذل من شدة الهول ، وقد انقطعت تلك الصلة الفذة بالسماء ومنها يستمدون البأس على عدوهم ٠ فناهيك وقد انتقض اكثر العرب فى فجاج الجزيرة قاصيها ودانيها ، حتى لقد أحدق منهم من أحدق بالمدينة عاصمة الاسلام ؟

ان موقف التشدد المسرف من ابى بكر هنا سياسة ملهمة لا يمكن للتدبير والحساب العقلى السطحى ان يسمو الى حصافتها ٠

ونزيد الأمر وضوحا :

ان ابا بكر لم يكن على شدة ايمانه رجل عاطفة شخصية فحسب ، بل كان صاحب بديهة عملية ووعى نافذ بالواقع لا تضلله الحماسة الجائشة ٠ ولم يفارقه فى لحظة الردع احساس ملهم بأن لحظة الردع ينبغى أن تكون أيضا أشد اللحظات حاجة الى اليقظة

وتمالك النفس ورباطة الجأش • فحيث طاش جأش عمر كان ابو بكر مثال الحزم الحازم والبديهة الحاضرة والثبات الذى لاتزعزعه النازلات • فترك محمدا بعد ان قبل جبينه وغطى وجهه وخرج مشمرا عن ساعد الجد ليواجه « الفراغ » الهائل الذى احدثه موت النبى •

واجتمع له الأمر بعد بيعة السقيفة المشهورة • وبهذه البديهة الحاضرة ذاتها أدرك ان الأمر يحتاج الى ذلك الحزم اليقظ الذى اسعفه لحظة وفاة محمد : ان الموقف ينبغى ان يواجه بعزيمة لا تلين •••

فلو انه راجع « الحساب العقلى » الظاهرى لقال بما قال به الاكثرون من الانكماش والتساهل • وتأجيل ما لا ضرورة له كى يواجه ما هو ألزم وأشد الحاحا من الدفاع عن المدينة ، بل الدفاع عن كيان دولة الاسلام نفسه • فلا يبعث سرية اسامة ويستبقيها لردع المنتقضين •

ولكنه بحصافة العقل الملهم أدرك ان ما نسميه فى عصرنا العامل النفسى ألزم لمواجهة كل هؤلاء الاعداء من كل الاحتياطات بالعدد والعدة •

وكأن ابا بكر كان يقول للعرب من مرتدين ومترددين :

ــ أو تظنون مناصرة الله لدين الاسلام قد انقضت بانقضاء حياة

النبى ؟ هيهات ! فهذه المناصرة قائمة . وأوامر محمد لم تزل نافذة وان كان قد مات ! وسينصر الله الاسلام نصره الفذ المبين كما نصره فى حياة نبيه ! وثقة مطلقة منى بهذا النصر الالهى والارشاد النبوى سأبعث جيش اسامة وفيه أبرز الصحابة ، فلا خوف على الاسلام على كل حال مهما كثر الاعداء ، لأن وعد الله حق ان ينصر المؤمنين كما نصرهم من قبل فى تلك المشاهد التى كان المشركون فيها أضعاف المسلمين .

بهذا التشدد الذى يبدو غريبا فى نظر بعض الناس أوقع ابو بكر فى نفوس المرتدين والمترددين أن الاسلام فى حرز حريز مهما حدثتهم نفوسهم أن أمره قد انتهى بوفاة النبى !

وبذلك المبدأ القائم على الايمان وعلى البديهة السديدة الملهمة معا كسب ابو بكر « المعركة النفسية » التى رجحت فى النهاية كفة المسلمين وأوقعت فى نفوس العرب أن المدد الذى أيد محمدا ونصره لم يزل من وراء ظهور المسلمين . ولو انه اتبع الحساب العقلى الظاهرى وأوقف بعثة أسامة لكان ذلك آية خوف يخسر بها المسلمون المعركة النفسية ، وتصبح المسألة منحصرة فى مواجهة سيوف بسيوف . وسيوف اعداء المسلمين يومئذ أضعاف أضعاف سيوف المسلمين . ولا يعلم الا الله ماذا كان حقيقا ان يحدث بعد ذلك ، وعلى أى وجه كان التاريخ قمينا أن يتغير بحروب الردة وقد فقد المسلمون » العامل النفسى » وتزلزلت قلوبهم امام المرتدين .

والآن ما حديث هذه الردة التى واجهها ابو بكر ، واستعان فيمن استعان عليها بصاحبنا عمرو بن العاص ؟

يروى الطبرى :

« قال ابو جعفر باسناده ان أبا بكر اقام بالمدينة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوجيهه اسامة فى جيشه الى حيث قتل ابوه زيد بن حارثة من أرض الشام .. وقد جاءته وفود العرب مرتدين يقرون بالصلاة ويمنعون الزكاة ، فلم يقبل منهم وردهم . وأقام حتى قدم اسامة بن زيد بن حارثة بعد أربعين يوما من شخوصه – ويقال بعد سبعين يوما – فلما قدم اسامة بن زيد استخلفه ابو بكر على المدينة وشخص فسار ونزل بذى القصة فى جمادى الأولى من السنة الحادية عشرة – ويقال فى جمادى الآخرة . وكان نوفل ابن معاوية الديلى بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقيه خارجة ابن حصن بالشربة ، فأخذ ما فى يديه (من الزكاة) ، فرده على بنى فزارة فرجع نوفل الى ابى بكر بالمدينة قبل قدوم اسامة على ابى بكر . فأول حرب كانت فى الردة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم حرب العنسى ، وقد كانت حرب العنسى باليمن ، ثم حرب خارجة بن حصن ومنظور بن زبان بن سيار فى غطفان ، والمسلمون غازون ، فانحاز ابو بكر الى أجمة فاستتر بها ، ثم هزم الله المشركين » .

انظر الى قوله هزم « الله » المشركين ! فهذا هو أثر « العامل

النفسى ، ان الله لم يزل مع المسلمين ، ومن كان الله معه فمن عليه؟ وان ينصركم الله فلا غالب لكم !

وعن شعيب - برواية الطبرى أيضا - عن سيف عن المجالد ابن سعيد : « لما فصل أسامه (أى سار بجيشه) كفرت الأرض وتضرمت نارا ، وارتدت من كل قبيلة عامة أو خاصة الا قريشا وثقيفا » .

وعن هشام بن عروة عن أبيه قال « لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وفصل اسامة (أى رحل بجيشه) ارتدت العرب عوام أو خواص ، وتوحى (أى ادعى الوحى) مسيلمة وطليحة ، فاستغلظ أمرهما . واجتمع على طليحة عوام طيء وأسد ، وارتدت غطفان الى ما كان من أشجع وخواص من الافناء فبايعوه . وقدمت هوازن رجلا وأخرت رجلا . امسكوا الصدقة الا ما كان من ثقيف ومن لف لفهم (أى من عد فيهم وانتمى اليهم) ... وارتدت خواص من بنى سليم وكذلك سائر الناس بكل مكان ... وقدمت رسل النبى صلى الله عليه وسلم من اليمن واليمامة وبلاد بنى أسد ووفود من كان كاتبه النبى صلى الله عليه وسلم وأمر أمره فى الأسود ومسيلمة وطلحة بالأخبار والكتب ، فدفعوا كتبهم الى ابى بكر واخبروه خبر انتقاضهم وادعائهم النبوة ، فقال لهم ابو بكر : لا تبرحوا حتى تجيء رسل امرائكم وغيرهم بأدهى مما وصفتم وأمر ! فلم يلبثوا ان قدمت كتب امراء النبى صلى الله عليه وسلم

من كل مكان بانتقاض العرب عامة أو خاصة ، وميلهم ضد المسلمين، فحاربهم ابو بكر كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حاربهم بالرسل ، فرد رسلهم واتبع الرسل رسلا ، وانتظر بمصادمتهم قدوم أسامة • وكان أول من صادم عبس وذبيان ، عاجلوه فقاتلهم قبل رجوع أسامة •

واجتمع فريق من القبائل حول المدينة بذى القصة ، وبقى فريق فى الأبرق • وأمد طليحة ـ مدعى النبوة ـ من بذى القصة بأخيه حبال • وفى ذلك الفريق بنو أسد ومن انضم اليهم من ليث والديل ومدلج • وبعثوا وفودا فقدموا المدينة فنزلوا على وجوه الناس بها ، واشترطوا أن يقيموا الصلاة وألا يؤتوا الزكاة • فعز الله لأبى بكر على الحق ! وقال : لو منعونى عقالا مما كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه ! أراد بالعقال الحبل الذى يعقل به البعير الذى كان يؤخذ فى الصدقة • وكان عقال الصدقة على أهل الصدقة مع الصدقة • فردهم فرجع وفد من يلى المدينة من المرتدين بذى قصة اليهم فأخبروا عشائرهم بقلة أهل المدينة ، واطمعوهم فيها • وجعل ابو بكر على مشارف المدينة بعد ما أخرج الوفد نفرا منهم على والزبير وطلحة وعبد الله بن مسعود ، وأخذ أهل المدينة بحضور المسجد ، وقال لهم : ان الأرض كافرة ! وقد رأى وفدهم منكم قلة• وانكم لا تدرون أليلا يأتونكم أم نهارا ! وأدناهم منكم على بريد (أى مرحلة) • وقد كان القوم يأملون أن

نقبل منهم ونوادعهم. وقد أبينا عليهم ونبذنا اليهم عهدهم. فاستعدوا وأعدوا !... فما لبثوا الا ثلاثا حتى طرقوا المدينة غارة مع الليل، وعند المشارف وجدوا من أقامهم أبو بكر من المقاتلين والأحراس فأرسلوا الى أبى بكر بالخبر، فأرسل اليهم أبو بكر أن الزموا أماكنكم ففعلوا ، وخرج أبو بكر فى أهل المسجد على الابل ، فانفش (أى انهزم) العدو ، فاتبعهم المسلمون على ابلهم قليلا ثم ارتدوا الى المدينة فظن القوم بالمسلمين الوهن ، وبات ابو بكر ليلته يتهيأ فعبر الناس ، ثم خرج على تعبية من اعجاز ليلته يمشى ، فما طلع الفجر الا وهم والعدو فى صعيد واحد ، فما سمعوا للمسلمين حسا ولا همسا حتى وضعوا فيهم السيوف وهم نيام فما ذر قرن الشمس حتى ولوهم الادبار وغلبوهم على عامة ظهرهم (أى دوابهم) وقتل حبال أخو طليحة ورجع أبو بكر الى المدينة فذل له بها المشركون. ووثب بنو ذبيان وعبس على من فيهم من المسلمين فقتلوهم كل قتلة ، وفعل من وراءهم فعلهم ، وحلف ابو بكر ليقتلن فى المشركين كل قتلة ، وليقتلن فى كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة ... وازداد المسلمون ثباتا على دينهم فى كل قبيلة بما فعل ابو بكر ، وازداد المشركون انعكاسا من أمرهم فى كل قبيلة ، وطرقت المدينة صدقات نفر : صفوان ثم الزبرقان ثم عدى فى ليلة واحدة فاستبشر ابوبكر.

وقدم اسامة بعد ذلك بأيام ، فاستخلفه ابو بكر على المدينة ثم خرج بنفسه لقتال المشركين ومعه من خرجوا معه الى ذى القصة ،

فقال له المسلمون : ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن تعرض نفسك ! فانك ان تصب لم يكن للناس نظام ، ومقامك أشد على العدو ، فابعث رجلا، فان مات أمرت آخر . فقال: لا والله لا أفعل! ولأواسينكم بنفسى . فخرج فى تعبية حتى نزل على أهل الأبرق فاقتتلوا فهزم الله الحارث وعونا ، وأخذ الحطيئة أسيراه فطارت عبس وبنوا بكر . وأقام ابو بكر على الأبرق أياما وقد غلب بنى ذبيان على البلاد ... » .

وهذه الروايات ناطقة بذاتها بما فعله أبو بكر ازاء موقف عسير على أشد الناس عزيمة . حتى لقد قيل ان من الصحابة من نصح ابا بكر ان يقر لهم بالصلاة ويعفيهم من الزكاة . ولكن تشدد ابى بكر أرضى الايمان وأرضى الحصافة السياسية النادرة فى آن واحد . لأن أى بادرة ضعف كانت حرية ان توقع فى أخلاد العرب ان رب محمد ودع أصحاب محمد وقلاهم . وقمين أن يتبع ذلك تحلل من الصلاة بعد التحلل من الزكاة . فالتشدد فى هذا المقام هو الموقف الوحيد الذى تستوجبه المسئولية الفذة الملقاة على عاتق أبى بكر . والناس بعد حديثو عهد بالاسلام . وكثير منهم مؤلفة قلوبهم أو « خاضع بالسيف » على حد تعبير عمرو بن العاص فى سفارته الى جيفر ، فما أن يجدوا بادرة تخاذل أو ضعف حتى يدركوا أن هذا ليس شأن من له من السماء سند متين ومدد مكين . وعفاء على الأسلام عندئذ . متى صارت المسألة مسألة لقاء اعداد من

الرجال بأعداد من الرجال • وكيف تغلب الفئة القليلة الفئة الكثيرة من غير الايمان بنصر الله ؟ وكيف يتفق الايمان بنصر الله والنزول عن شيء من احكامه ؟

ولأن المسألة بالنسبة للاسلام مسألة بقاء أو فناء خرج ابو بكر لقتال المرتدين بنفسه ، كما كان النبى يخرج من قبل •

وبعد تلك الصدمة الأولى ، وذلك النصر الأول بذى القصة والأبرق عن كثب من المدينة ، كان طبيعيا ان يبعث ابو بكر البعوث لقتال الأطراف البعيدة ، على كثرة المرتدين فيها من كل حبوب وكل قبيل •

ويروى الطبرى عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال :

« لقى ابو بكر من كانوا بالأبرق فقاتلهم فهزمهم الله وفلهم • ثم رجع الى المدينة • فلما جم (أى استراح) جند اسامة وثاب من حول المدينة وخرج الى ذى القصة فنزل بهم — وهو على بعد بريد من المدينة تلقاء نجد — فقطع (وزع وقسم) فيها الجند وعقد الألوية • عقد أحد عشر لواء على أحد عشر جندا • وأمر أمير كل جند باستفسار من مر به من المسلمين من أهل القوة ، وتخلف بعض أهل القوة لمنع بلادهم • وعقد لخالد بن الوليد وأمره بقتال طلحة ابن خويلد ، فاذا فرغ منه سار الى مالك ابن نويره • وعقد لعكرمة ابن ابى جهل وأمره بمسيلمة الكذاب ••• (الى ان يقول فى نهاية

الرواية) وعقد لعمرو بن العاص الى جماع قضاع ووديعة والحارث ...

فعمرو بن العاص اذن أحد القواد الأحد عشر الذين عقد لهم ابو بكر الألوية لحرب المرتدين .

عمرو بن العاص الذى أسلم قبيل فتح مكة ، وحارب الاسلام نيفا وعشرين سنة حين لم تطب نفسه أن يرى محمدا يسود العرب اجمعين ... ها هو عمرو بن العاص هذا بنفسه وقد صار من حماة الاسلام حين انتقض على الاسلام اخوان له من قبل !

انقلاب عميق الأبعاد حدث فى تفكير عمرو واحساسه فى ذلك الأمد القصير .. وقد وجد فى ذلك الدين ما حقق به من ذاته ما لم يتح له فى الشرك طيلة عمره ، فصار قائد محمد ، ثم صار سفير محمد . ثم صار والى محمد أو عامله على الصدقات . وكأنما هذا الرجل قد وجد نفسه بعد أن أضاعها ذلك الردح الطويل .

وكان انتقاض العرب على الاسلام انتقاضا فى رأيه ووجدانه على « كيان عام » وعلى « عقيدة » يجد فيها مجاله النفسى من جميع الوجوه . فهو لا يتصور كيف تدول هذه الدولة وعقيدتها ، بعد ان جمعت العرب لأول مرة تحت لواء واحد ، وتوشك أن تجتاح بهم آفاق الدنيا . ونفس الرجل الطموح الناجح الذى يعيش لطموحه ونجاحه لا تتصور التفتت بعد الجماعة ، والشتات بعد البأس ،

والتخاذل بعد الفتوة •• واذا دالت هذه الدولة فلا امارة ولا سلطان لأحد • واذا خمدت هذه العقيدة عادت الجزيرة شراذم تهيم فى حماية الشرك •

فقضية الاسلام اذن تعنى عمرو بن العاص بحكم العقيدة وبحكم التكوين النفسى العملى الطموح • ومصلحة العقيدة هنا ومصلحته الخاصة شىء واحد فى مفترق الطرق العسير بين الكفر والايمان •••

ويروى عنه أنه وهو فى طريقه من عمان الى المدينة – حين دعاه ابو بكر فيمن دعا من أمرائه لاعداد العدة للحرب ضد المرتدين – نزل ببنى عامر ، فاذا زعيمها قرة بن هبيرة يهم بالردة ويسمى الزكاة اتاوة يترفع العرب عن أدائها للمسلمين : « فان اعفيتمونا منها فستسمع لكم العرب وتطيع ، وان أبيتم فلا تجتمع عليكم ! » فلم تأخذ عمرو أمير الزكاة هوادة ، واشتد شدة أبى بكر – من غير ان يرى ما صنع – وصاح بزعيم بنى عامر : « أهو الكفر يا قرة ! أتخوفنا بردة العرب ؟ فوالله لأوطئن عليك الخيل فى خفش أمك ! » •

وأسرع عمرو الى الخليفة فأخبره بما كان من قرة ، فزادت به ثقة ابى بكر ، وأصبح من أقرب الناس اليه ، وكان أبو بكر يذكر وقعة ذات السلاسل فى حرب قضاعة وكان الصديق من جنود المدد الذى أمده به النبى وحارب تحت امرته وعرف حنكته وبصره

بالحرب وحزمه وشدته على العدو وحسن تدبيره ، فندبه فى هذا المقام لحرب قضاعة التى ارتدت ومنعت الزكاة ...

وقاتل عمرو بن العاص قضاعة هذه المرة قتالا عنيفا لا يتسم بالحذر كالمرة الأولى ، لأن القسوة واظهار البطش فى هذا المقام أحجى ، فلم تعد المسألة مسألة اختبار لقيادته فى خدمة النبى والدين - كالمرة الأولى فى ذات السلاسل - بل هى الآن بالنسبة للاسلام مسألة فناء أو بقاء . وفى مثل هذا الموقف حيث لا بديل من النصر .

وهكذا كانت حروب الردة المحك الحاسم لصدق اسلام عمرو

وكتب لعمرو بن العاص النصر المؤزر ، وثابت قضاعة الى الاسلام ، وأدت الزكاة عن يد وهى صاغرة ...

وعلى سنة النبى من قبل ، كافأ الصديق قائده عمرو بن العاص فولاه قضاعة التى هزمها ، لأنه أجدر ان تهابه ولا تشق عليه عصا الطاعة وقد ذاقت بأسه بدل المرة مرتين ...

فاتح فلسطين

يقول الطبرى ان ابا بكر لما قفل من الحج سنة اثنتى عشرة ـ وكان قد سمع بما جمعه هرقل من الجيوش الجرارة التى يقال انها بلغت مائة ألف مقاتل أو اكثر على حدود فلسطين للقضاء على الدولة الاسلامية الناشئة ، جهز الجيوش الى الشام ، فبعث عمرو بن العاص قِبَل (أى نحو) فلسطين فأخذ طريق المعرقة على أيلة (المعروفة الآن باسم ايلات أو العقبة ...) .

ويقول الطبرى أيضا ان ابا بكر « عند اهتياجه للشام كتب الى عمرو بن العاص : انى قد رددتك على العمل الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاكه مرة ، وسماه لك اخرى انجازا لمواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد وليته ثم وليته . وقد أحببت ـ يا أبا عبد الله ـ أن أفرغك لما هو خير لك فى حياتك ومعادك منه . الا ان يكون الذى انت فيه أحب اليك ! » .

فكتب اليه عمرو : « انى سهم من سهام الاسلام ، وأنت بعد الله الرامى بها والجامع لها ! فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم به شيئا ان جاءك من ناحية من النواحى ! » وأناب عمرو بن العاص

على عليا قضاعة نيابة عنه عمرو بن فلان العذرى ، وأمد ابو بكر عمرو بن العاص ببعض من انتدب الى ما اجتمع اليه ، وأمره على فلسطين ، وأمره بطريق سماها له • وكتب الى الوليد بن عقبة وأمره بالأردن وأمده ببعضهم • ودعا يزيد بن ابى سفيان فأمره على جند عظيم هم جمهور من انتدب له ••• واستعمل ابا عبيدة بن الجراح على من اجتمع اليه وأمره على حمص » •

ويروى الرواة فى هذا المقام حادثا يدل على سجية فى عمرو ابن العاص اشتهر بها وهى حب الرياسة ، أشبه بما كان منه فى ذات السلاسل مع وجوه الصحابة وعلى رأسهم أمير المدد اليه عبيده بن الجراح أمين الأمة •••

ها هى حملة توشك الا يكون لها نظير • انه قتال الروم على اقاليم الشام من فلسطين الى جبال طوروس والأردن • أربعة جيوش ! ما أعظمها فرصة للطموح الى الامارة الشاملة والقيادة العامة !

ونظر عمرو بن العاص فاذا قرينه خالد بن الوليد قد انفرد بقيادة الجيوش التى تغزو امبراطورية الفرس • فما أحراه اذن ان يصبو الى مثل منصبه فى غزو امبراطورية الروم • ولذا ما ان بدأ الصديق ابو بكر ينظم الجيوش الأربعة ويستعد لعقد ألوية الامارة عليها حتى انطلق الى صفى الخليفة ومستشاره الأعظم عمر بن الخطاب ، وتوسل به عند الخليفة كى يجعل له القيادة العامة على

سائر أمراء تلك الجيوش الأربعة • وقال له فى كياسته المعهودة :

ـ يا أبا حفص ! أنت تعلم شدتى على العـدو ، صبرى على الحرب (وما يوم ذات السـلاسل بسر !) فلو كلمت الخليفـة أن يجعلنى أميرا على أبى عبيـدة (وكان الخليفة ينوى أن يجعل له القيادة العامة) وقد رأيت منزلتى عند رسول الله • وانى أرجو أن يفتح الله على يدى البلاد ويهلك الاعداء » •

فأجابه عمر بصراحته المعهودة :

ـ كلا ! ما كنت لأكذبك ! وما كنت بالذى اكلمه فى ذلك ! فانه ليس على أبى عبيدة أمير ولأبو عبيدة عندنا أفضـل منزلة منك وأقدم سابقة • والنبى صلى الله عليه وسلم قال فيه : أبو عبيدة أمين الأمة » •

ولم يقنط عمرو ، وراح يلح عليه قائلا :

ـ ما ينقص من منزلته اذا كنت واليا عليه !

فزجره عمر قائلا :

ـ ويلك يا عمرو ! انك ما تطلب بقـولك هذا الا الرئاسـة والشرف ، فاتق الله ولا تطلب الا شرف الآخرة ووجه الله تعالى ! »

وعند الرحيل من المدينة شدد ابو بكر على عمرو أن يكاتب أبا عبيـدة ، وأن ينجـده ان طلب منـه ذلك ، ولا يقطع أمرا الا بمشورته !

وكانت عدة جيش عمرو الذى توجه به لفتح فلسطين تسعة آلاف مقاتل فى حين كانت عدة الجيوش الأربعة سبعة وعشرين ألفا بين راكب وراجل •

وما كان الروم ليلقوا هذه الجيوش المتفرقة وهم أشتات ، فجمعوا لهم جموعهم ، وتحير القواد الثلاثة فى قلب الشام ما يصنعون • فكتبوا الى الخليفة فى المدينة ، والى عمرو بن العاص فى مشارف فلسطين يسألونهما الرأى • وجاءهم الرأيان من مكانيهما المتباعدين بنصيحة واحدة : ان يجتمع المسلمون بكل قوتهم فى مكان واحد ليلقوا جمع الروم لقاء رجل واحد •

وكان عمرو بن العاص عارفا بمواقع الاقليم ، نافذ النظرة فى دراسة المسالك والمواضع وعناصر تقدير الموقف بالمعنى العسكرى الحديث • فوقع اختياره على ضفة اليرموك حيث الماء والمرعى انتظارا للقاء جيوش الروم • وأخذ القواد الثلاثة برأيه وأقاموا هناك •

وكان الخليفة قد أرسل الى خالد بن الوليد أن يهب لنجدتهم ومددهم ، فقطع بادية الشام ــ وهى مفازة مهلكة لم يقطعها جيش ضخم من قبل ــ وأدركهم قبل الصدام ، واجتمع بذلك من المسلمين نحو خمسين ألفا • أما جيش الروم فيروى الطبرى انه كان يقارب ربع المليون •

وقاد خالد وقعة أجنادين التى أعقبت اجتماع اليرموك ، وهزم

الروم وكان لعمرو بن العاص فيها نصيب ملحوظ من الشجاعة المستميتة التى يرجع اليها الفضل فى انتصار الفئة القليلة على الفئة الكبيرة .

ثم انفرد عمرو بجيشه بعد ذلك فأتم فتح فلسطين وما حولها من التخوم . واستولى على السواحل والمرافىء ، وحاصر ايلياء ، أو بيت المقدس وهى عاصمة اقليم الشام على عهد الروم . ومثاب الحج لدى المسيحيين . ففيها كنيسة القبر المقدس . وفيها بقايا هيكل سليمان ... وكان قائد حاميتها من أشهر قواد الروم ودهاتهم ، وهو أريطيون الذى كان يسميه العرب أرطبون .

ومن مزايا القائد الماهر ولا مراء أن يحكم الحصار وهو غريب الدار احكاما يرغم العدو على طلب التسليم . وهذا ما فعله أريطيون بعد ان طال الحصار أربعة أشهر . لاذ فارا الى مصر ، وترك بطريق القدس يفاوض فى الصلح والتسليم بما يصون المعابد والشعائر . وامعانا فى الاحتياط أصر على ألا يسلم عاصمة العقيدة المسيحية ومثاب حجيجها الا الى الخليفة ـ وكان ابو بكر قد مات وتولى الأمر من بعده عمر بن الخطاب ـ فجاء عمر وتسلم بيت المقدس ووقع وثيقة الأمان وعهوده بنفسه بنصها المشهور :

« باسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما اعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان : أعطاهم أمانا لأنفسهم . ولأموالهم. ولكنائسهم . وصلبانهم . وسقيمها وبريئها . وسائر ملتها . انه

لا تسكن كنائسهم ولا تهدم• ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم • ولا يكرهون على دينهم • ولا يضار أحد منهم • ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود • وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن •••».

وكان عمرو بن العاص ممن شهدوا على هذه الوثيقة التى وقعها الفاروق ودخل معه بيت المَقدس وزار معه مزاراتها المشهورة•

وبذلك ختم فصل آخر من فصول أمجاد عمرو بن العاص فى ميادين القتال • ولكن هذا الفصل من البطولة والدهاء والحنكة لا يتم قبل أن نتعرض فيه لحادث صغير له دلالة كبرى على ألمعية عمرو وعبقريته فى القيادة العسكرية بأحدث معانيها ، وهو ذلك البدوى الذى لم يتلقن فن الحرب الا فى اكاديمية الفطرة • وذلك ما يقطع بأن ابرز صفاته انه قائد مطبوع •••

لقد تنبه وهو يفتح تخوم فلسطين أن مصدر الخطر الحقيقى على جيوشه وجيوش المسلمين بعد اليرموك قمين أن يأتى من جهة الغرب : من جهة مصر• درة اقاليم الامبراطورية الرومانية ومجتمع جيوشها وسلاحها ومورد ميرتها الذى لا ينضب •••

وصلة الوصل بين فلسطين ومصر مرفأ غزة • لذلك وجه اليها من قواده من حاصرها وفتحها عنوة • ويقال أنه قاد حصارها والهجوم عليها بنفسه • ويروى ابن الكلبى فى هذا المقام تلك

« النادرة » الاسطورية الشائعة عن دخول عمــرو بن العاص اليها لمقابلة حاكمها وكأنه رجل من عامة جنــد المســلمين ، فوجد فيه الرجل مضاء جنان وذلاقة لســان لا تكون الا من الأقطاب ووجوه الناس • فأجزل له العطاء وصرفه ، وكان قد أرسل الى حارس باب المدينة أن يضرب رأسه • وفى طريقه الى الســور لقى رجلا من عرب غسان النصارى عرفه وحذره ، فرجع عمرو الى الحاكم وقال له: هديتك عظيمة ولكنها لا تكفى أبناء عمى وأخوتى وهم عشرة وأنا أقلهم شأنا ، فاذن لى أن أقدم عليك وفدهم لتعطيهم كما أعطيتنى فيطيروا ذكرك بين العرب • فطمع الرجل ان يقتل عشرة لا واحدا، وأرسل الى عامل السور أن يدعه يخرج بسلام ، ثم حدث التسليم والصلح ، فلما رأى الحاكم عمــرو بن العــاص بهت وقال غلبنى الرجل ؛ ما أدهاه ! » •

وقد لا تكون الأســطورة صحيحة بحــذافيرها ، ولكنها تدل دلالة صادقة على شــهرة عمــرو بالجــرأة والدهاء •• وهى ليست مقصودنا فى حد ذاتها على كل حال • وانما أردنا مدى ادراك عمرو ابن العاص لأهمية المواطن التى يتوقع منها الخطر • وهو ادراك من أرقى ما يتميز به القائد الحصيف بالمعنى العصرى •

وما من شك ان هذا الادراك لأهميــة غزة ـ منفذ مصر الى فلسطين ـ حقيق أن ينطوى من باب أولى على ادراك ضخم لأهمية

أجل وأعظم ... أهمية مصر ، ومبلغ خطرها على الدولة الاسلامية الناشئة في الشام . وكيف انها المنطلق الحقيقي للروم وهم يتواثبون للانتقام واسترداد ملكهم الضائع . ففي مصر المؤن والرجال بغير عدد . ومنها يقطع خط الرجعة على جيوش المسلمين ويفصل بينهم وبين الحجاز .

بهذا الوعي العسكري . وتلك البصيرة النافذة أدرك عمرو ابن العاص ما لم يصل اليه ادراك سواه من معاصريه وأقرانه القواد الصناديد .

وبهذا التصور الفريد كتب لعمرو بن العاص أن يفكر ويلح على الخليفة الفاروق ان يفتح مصر ...

فاتح مصر

قدر للعرب ان يفتحوا مصر •

وقدر ان يكون قائدهم وصاحب فكرة فتحها عمرو بن العاص •

ولسنا نقول انه صاحب فكرة فتحها ابتداء • بل فى هذا الوقت المعين من نشأة الدولة الاسلامية •

فالغالب على أقلام الكتاب فى الشئون العربية والاسلامية ان فتح مصر كان امرا مقدورا ووعدا لأوان موقوت • فالنبى قد قال يوما لصحابته الأقربين :

ـ ستفتحون مصر ! وهى أرض يسمى فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيرا ، فان لهم ذمة ورحما •• !

ولا غرو ! فهاجر ام اسماعيل بن ابراهيم جد النبى وجد قريش الأعلى كانت مصرية • ومارية القبطية التى ولدت للنبى ابنه ابراهيم كانت مصرية . وحسب الرحم والذمة هاتان الآصرتان ..

وكذلك قال النبى لصحابه الأقربين فى مناسبة اخرى :

ـ اذا فتح الله عليكم مصر فتخذوا بها جندا كثيفا ...

وبذلك كان المسلمون فى حياة النبى وبعد وفاته موقنين انهم سيفتحون الاراضى المصرية وينتزعون ملكها من الروم .

اما أوان ذلك فكان فى بطن الغيب .

وكأنما كان عمرو بن العاص أداة هذا الغيب . أو ـ ان جاز القول ـ كان القابلة التى استخرجت هذا الفتح من أحشاء الغيب.

وكيف كان عمرو هذه الاداة ؟ أو لماذا قدر لعمرو ان يكون هذه الاداة ؟

*

سؤال ترتد بنا اجابته الى أمر انتهينا اليه فى هذه الصفحات من قبل . وخلاصته أن عمرو بن العاص كان قائدا مطبوعا .

ففى هذه الصفة يتلخص أيضا تفرده بتحديد هذا الأوان لهذا الفتح المرتقب .

والفيصل هنا هو فكرة « البدوى » أو عربى الجاهلية عن الحرب .

ولسنا نجهل أو نمارى فى ان الجزيرة العربية اخرجت محاربين كماة وقوادا مغاوير . ولكن فكرة البدوى على العموم عن الحرب انها « صدام مسلح » وأرينة يتجاول فيها الاقران . والنابغة

النابغة من قادتهم من كان يحسن توزيع الكتائب وصنع الكمائن والكر والفر فى المواقع التى تتلاقى فيها الجموع الكثيفة (أى التكتيك) وما شأن سيف الله خالد بن الوليد بسر ...!

أما القائد المطبوع بالمعنى الذى نعرفه فى العصر الحديث فالحرب فى نظره ذات صورة أشمل وأعمق ابعادا ...

الحرب بالمعنى الحديث فى نظر القائد المطبوع خطة تشمل المصادر والموارد الاقتصادية والبشرية وخطوط المواصلات وامكانات التحرك وكثافة العتاد ..

ومثل هذه النظرة وحدها هى التى تجعل مصر فى نظر قائد بالمعنى الحديث مكمن الخطر الهائل على الفتوح العربية ولا سيما فى الشام . فمصر مفتاح المستعمرات الرومانية فى شمال افريقيا كله. ومنها ـ وحدها كما يتضح من النظرة الأولى الى خريطة الشرق الأوسط ـ يمكن أن تهب أعاصير الثأر من الآمبراطورية البيزنطية التى غدت كالنمر الجريح فتقطع ما بين جيوش العرب فى الشام وبين قواعدها البعيدة فى الجزيرة العربية ، وربما ـ لو أفلحت ـ تسنى لها ان تنثنى بعد الاجهاز على فتوح الشام وجيوش العرب هناك فتجهز على قلب الدولة العربية نفسها وقد فقدت زهرة رجالها فى تلك المطارح البعيدة ...!

لو أن نابليون كان بين قواد العرب لما كان تصورهم لمصر غير

هذا التصور الذى لم يخطر لأحد من قواد العرب غير عمرو ابن العاص • فهو بهذا لم يكن صاحب حرب بالمعنى التنفيذى كمعظم القواد فحسب، بل كان صاحب حرب بالمعنى التخطيطى الاستراتيجى الحديث وبأوسع معانى هذه الكلمة •

وبهذا استحق عمرو مرة أخرى صفة القائد المطبوع •

ولكن أهذا كل ما كان من ادراك عمرو بن العاص لشأن مصر وخطرها ؟

لو كان الأمر كذلك لما كان مبررا كافيا الاقدام الناجز على غزوها • فالخطر الجسيم ليس معناه فى جميع الأحوال التصدى والاقتحام• بل قد يكون فى كثير من الأحيان داعيا للأناة والاحجام•

وانما توفرت لعمرو صورة اخرى لمصر الى جانب هذه الصورة • فصورة مصر درة الامبراطورية البيزنطية وما بها من موارد وعتاد ، وما يمكن ان تكونه قاعدة لرأس حربة مصوبة الى « الحبل السرى » الممتد من الجزيرة العربية الى أرض الشام صورة تفرض نفسها على العقل العادى لأول وهلة • اما الصورة التى ارتسمت فى قريحة عمر بفراسته الخاصة أو التى لمحها بعبقريته النفاذة فذات طابع آخر :

ان هذا المكمن للخطر الممكن هو فى حد ذاته عرضة لخطر ممكن !

وبعبارة أخرى :

ان مصر التى يمكن أن تصبح قاعدة للقضاء على فتوح الشام ، وربما ايضا على الدولة العربية كلها ليست من القوة بحيث تستعصى — ان هى عوجلت — على الفتح العربى ، قبل أن يفيق النمر الجريح ويحشد قوى الامبراطورية ويحولها الى انتجمع فى مصر استعدادا للثأر الزاحف •

ولقد علم عمرو حقيقة الأحوال من اسفاره فى الجاهلية ، ومما كان يسمعه اثناء فتح فلسطين على تخوم مصر من ألسنة الحجاج والرهبان ، والعرب المسيحيين فى غسان ، ومن التجار الشاميين والعرب الذين كانت حرفتهم الرحيل الى مصر أو استقبال الوافدين بتجاراتها• فعلم أن المصريين لا يبغضون شيئا كما يبغضون حكامهم الرومان • ولا يتمنون شيئا كما يتمنون الخلاص من حكم الرومان • وأن عسكر الروم هناك فى شغل دائم باضطهاد المصريين أو قمع فتنتهم وعصيانهم السافر أو الكامن ، وانهم لا يأمنون على أنفسهم هناك ولا يتوقعون من المصريين عونا على غاز قد يرون فيه المنقذ المخلص من حيف الروم •

وليس أسرع من سريان أخبار حوادث الاضطهاد أو الفتن أو التمرد فى الصحراء ، لأنها «زاد الركب» وعدة سمرهم ، يزيدنا فيها أحيانا كثيرة مطاوعة للخيال ورغبة فى اثارة الاهتمام • فكيف لا تصل هذه الأخبار الى أسماع ذى فراسة يحسن فهم ما وراءها كعمرو بن العاص ، وهى أخبار ما فتئت تتوالى منذ سنوات ، وبعد

أن تولى « قيرس » أمر مصر وأثار فيها خلافا مذهبيا مع قبط مصر وبطريقهم بنيامين ، حتى لجأ بنيامين الى البرية وعطل الشعائر فى انحاء الديار • والناس فى ذلك الزمان لهم تمسك بالخلافات المذهبية ، ويلجون فى الاقتتال عليها اكثر من اقتتالهم أحيانا مع عباد الاوثان••

كل ذلك كان له مغزاه الواضح فى فراسة عمرو بن العاص ، بحيث رأى السيطرة على مصر ثمرة متعفنة فى شجرة الامبراطورية الرومانية لا تحتاج الا الى هزة يسيرة كى تسقط • وبذلك تكسب الدولة العربية درة ثمينة أدسم من الشام والعراق • وتكسب أيضا مفتاحا لكل افريقيا فيما بعد ، وتقضى فى الوقت نفسه على آخر أمل للرومان فى استرداد ما فقدوه !

ان الحرب الدفاعية التى تنقلب الى مغنم ضخم ولا تقف عند حد دفع الضرر والخطر الداهم •

وذلك تصور لم يخطر – بأبعاده كلها على الأقل – للفاروق عمر ولكنه خليق أن يدركه ويقتنع به وقد بسطه أمامه عمرو ابن العاص ، ولا سيما بعد فرار أريطيون – الذى يسميه العرب ارطبون – قائد الروم من ايلياء – بيت المقدس – الى مصر ••• استعدادا بالطبع للكر منها على جيوش العرب •••

ولقد أحسن عمرو « تقدير الموقف » بالتعبير العسكرى الحديث حين قال عن الخطر المرتقب من مصر : انه عائق كئود اذا

أجل ، ميسور التذليل اذا عوجل قبل استقراره !

وأدرك الحاكم المطبوع عمر بن الخطاب رأى القائد المطبوع عمرو بن العاص ، ووجهه الى فتح مصر ...

وكان اجتماع الخليفة بقائده فى « الجابية » بقرب مصر ، سنة ٦٣٠ للميلاد ، وكان العرب لا يزالون على حصار مدينة قيصرية ، على ما ذكره الدكتور ألفريد بتلر والأرجح انها سنة ٦٤٠ .

وقد استطاع عمرو أن يهون على الفاروق فتح مصر ، بحيث رضى أن يسيره اليها فى جيش لا يتجاوز اربعة آلاف ـ لأنه ما كان ليضعف جيوش العرب فى الشام بأكثر من هذا القدر ـ ووعده المدد ان احتاج اليه فيما بعد .

يقول ابن عبد الحكم :

« ولما قدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه الجابية قام اليه عمرو ابن العاص فخلى به ، فقال : يا أمير المؤمنين ائذن لى أن أسير الى مصر . وحرضه عليها ، وقال : انك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم ، وهى اكثر الأرض أموالا وأعجزها عن القتال والحرب. فتخوف عمر على المسلمين فكره ذلك فلم يزل عمرو يعظم أمرها عند عمر ويخبره بحالها ويهون عليه فتحها ، حتى ركن لذلك عمر ، فعقد له على أربعة آلاف رجل ، ويقال بل ثلاثة آلاف وخمسمائة ، فقال له عمر : سر وأنا مستخير الله فى مسيرك .

وسيأتيك كتابى سريعا ان شاء الله ، فان ادركك كتابى آمرك بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها فانصرف . وان انت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك ، واستعن بالله واستنصره . فسار عمرو بن العاص من جوف الليل ، ولم يشعر به أحد من الناس . واستخار الله عمر فكأنه تخوف على المسلمين فى ذلك ، فكتب الى عمرو بن العاص ان ينصرف بمن معه من المسلمين . فأدرك الكتاب عمرو بن العاص وهو برفح ، فتخوف عمرو ان هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف كما عهد اليه عمر .. فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه (أى استمهله بالمعاذير) وسار كما هو حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش فسأل عنها ، فقيل انها من مصر ، فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين ، فقال عمرو لمن معه : ألستم تعلمون ان هذه القرية من مصر ؟ قالوا بلى ! قال : فان أمير المؤمنين عهد الى وأمرنى ان لحقنى كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع ، ولم يلحقنى كتابه حتى دخلنا أرض مصر ، فسيروا وامضوا على بركة الله » .

ويقول ابن سعيد :

« ويقال ، بل كان عمرو بفلسطين فتقدم بأصحابه الى مصر بغير اذن فكتب فيه الى عمر ، فكتب اليه عمر وهو دون العريش ، فحبس الكتاب فلم يقرأه حتى بلغ العريش فقرأه فاذا فيه : من عمر بن الخطاب الى العاصى بن العاصى : أما بعد ، فانك سرت الى

مصر ومن معك ، وبها جموع الروم وانما معك نفر يسير ، ولعمرى لو كان ثكل أمك ما سرت بهم ! فان لم تكن بلغت مصر فارجع ! فقال عمرو : الحمد لله أية أرض هذه ؟ قالوا من مصر ، فتقدم كما هو !... » .

وهذه الرواية الأخيرة (لابن سعيد) يرفضها العقل بغير كبير عناء . فكل من عرف الفاروق عمر وما له من هيبة وشدة ورهبة لا يمكن أن يتصور قائداً من قواده ، ولا سيما الكيس الأريب عمرو بن العاص ، يجرؤ على السير بجنده لفتح قطر مثل مصر بغير اذن ... ان الفاروق عزل خالد بن الوليد - على ما به من جرأة وعلى افتتان الجند بسيف الله المسلول افتتانا ليس له نظير - فلم تسعه المخالفة واعتزل من فوره وهو كظيم ، حتى لقد وصف نفسه وهو على فراش الموت قائلا : هأنذا أموت على فراشى كما يموت العبد!.. وكانت فى خالد حدة اندفاع ، وما كان عمرو مع أولى الأمر الا سامعا مطيعا حسن المدخل . فكيف نظن به خرق الطاعة والاقدام على غزو مصر بغير اذن ؟ ثم حين لحقه خطاب عمر ، من اين له أن يعرف سلفا ما به فلا يفضه الا وهو فى أرض مصر ؟ انما يستقيم ذلك على افتراض واحد : ان يكون هذا الخطاب آية بينهما متفقا عليها سلفا ، ومن باب أولى يكون اقدام عمرو على السير الى مصر باذن سابق من عمر ، وهو بديهى ولا يتصور العقل خلاف ذلك .

وتجمع سائر الروايات على تصوير تردد عمر، واصرار عمرو،

وانظر الى قول الرواية ان عمرو بن العاص ألح على الفاروق فى أن « مصر اكثر الأرض أموالا » على سبيل الاغراء ، ثم فى انها أعجزها عن القتال والحرب » على سبيل التهوين من المجازفة •
ولا بد انه كان تهوينا ناجحا جدا ، حتى لقد أجاز الفاروق له أن يبدأ الفتح بأربعة آلاف ، وقيل ثلاثة آلاف وخمسمائة •

ومما يسترعى النظر ولا شك فى هذا المقام امعان عمرو فى الاصرار على الفتح ، عن فرط اقتناع بقدرته عليه لضعف مصر الشديد ، حتى لقد عمد الى استخدام دهائه المعروف فى استمهال حامل الرسالة الى أن يستريح من وعثاء السفر قبل أن يجازف بتسلم رسالة منه ، حتى يكون قد دخل جزءا من مصر ولا شك فى ذلك •• فلا يكون أمام الفاروق مناص من تركه يمضى ، ومن امداده بعد ذلك كى يتم ما بدأه ، لأن النكول بعد الدخول فى الأراضى المصرية فيه استجراء للروم واشعارهم بضعف العرب عنهم ـ وذلك يعدل الهزيمة سلفا ، ويوهن ايمان العرب وثقتهم بأنفسهم ـ وهذه الثقة كانت ـ لا العدد والعدة ـ عمادهم الأكبر فى الانتصار على من يحاربونهم •

وأخرى تستوقف النظر : أن عمرو بن العاص ـ كما تقول الرواية ـ ما أن اذن له الفاروق حتى « سار من جوف الليل ولم يشعر به أحد من الناس » فذلك يجسم شيئين : شدة لهفته على السير الى مصر فهو لا ينتظر طلوع النهار ، وانه أراد الكتمان حتى

« لا يشعر به أحد من الناس » وما أسرع انتقال الأخبار بين الناس فى أوقات الحرب ، وما أكثر الضالعين مع الروم من بقايا صنائعهم والعاطفين عليهم فى أنحاء الشام ، وانه ليعلم ـ وهو القائد المطبوع ـ أن السرية وكتمان التحركات والاتجاهات عن العدو عامل من أعظم عوامل النصر ، لأنه لباب المفاجأة • وسنعلم أن المفاجأة كان لها شأن بارز جدا فى فتح مصر خاصة • وأن ذلك ما كان ليغيب عن قائد مطبوع عبقرى التصور لما هو مقدم عليه ، عارف بالطبيعة الخاصة للمعركة التى يزمع أن يخوضها كى يقيم لنفسه مجدا خاصا مؤثلا مستقلا لا يشركه فى قيادته العليا فيه أحد ، بعد ان فوت عليه الفاروق ذلك المجد ـ مجد القيادة العليا ـ فى فتوح الشام ، حرصا من الفاروق على مكانة أبى عبيدة أمين الأمة •

★★★

وفتح مصر على يد عمرو مسألة معروفة لكل الناس لا يشذ عن ذلك تلاميذ المدارس الصغار ، ولم يساعده على الحرب الا مدد بعث به عمر بن الخطاب عندما طالت الحرب أكثر من سنة بسبب حصار حصن بابليون خاصة واتساع رقعة مصر وكثرة العوائق المائية ـ ولا سيما فى أعقاب الفيضان ـ وفى هذا المدد من المغاوير من يقدر الواحد منهم بألف كالزبير بن العوام وعبادة بن الصامت •

ولكن الذى يستحق الوقوف عنده ليس تفصيل الفتح ومواقعه،

بل « أسلوب » الفتح نفسه ، فذلك الأسلوب هو الذى يدلنا على عقل الرجل وطريقة تفكيره وتصديه للملمات والمعضلات •

وأول ما يسترعى النظر انه كان يتنقل بين المواقع ويهاجم البلاد والحصون والاقاليم على غير نسق واضح منتظم • فهو مثلا يترك حصن بابليون حين طال حصاره ويبعث السرايا الى الصعيد موغلا فيه •

ومن البلاهة أن يتناول أحد هذا « القفز » على غير نسق واضح بأن عمرو بن العاص كان جاهلا بأصول الحرب التقليدية ، هجاما على الأخطار فى غير دراية • وليس الأمر هكذا • ولسنا نرى فى ماضى سيرة عمرو ما يؤيد حماقته بل ما يؤيد حنكته ودهاءه •

فما التفسير الصحيح اذن لمجازفته بهذه « الحفنة » بين فجاج قطر مترام كثيف السكان والجند ؟

ليس ثمة الا تفسير واحد يتفق مع طبيعة عمرو ، ومع ظروف تلك الحرب ، ومع النتيجة التى انتهت اليها ايضا ؟ وكلها تؤيد قولنا أن عمرو بن العاص قائد مطبوع :

نفر قليل من الفرسان العرب وراكبى الابل فى جانب الهجوم• وبلد مترام كثيف السكان ، كثير المواقع والحصون• وفى آفاقه جيوش كثيفة ثقيلة الحركة متخوفة من تمرد السكان وانتقاضهم عليهم هنا او هناك لحقد كامن كظيم •••

والتصور الأمثل للخيالة العربية الضامرة الخفيفة السريعة الحركة ، التى لا تثقلها دروع كدروع الرومان على الخيل والرجال انهم – أى الفرسان العرب – أشبه فى ايامنا هذه بالسلاح الجوى السريع الذى اكبر ميزته المفاجأة وسرعة الانقضاض على غرة •

وجيوش الرومان ثقيلة الحركة أشبه بالقطعان الكبيرة المقيدة بمواضعها • فأدهى ما ترمى به أن تنقض عليها تلك النسور بين عشية وضحاها على غير توقع •

وأضع تحت عبارة « على غير توقع » خطا غليظا للتنبيه والتجسيم • فلو أن عمرو بن العاص اتبع فى هجماته بفرسانه القلائل خطة منهجية يمكن لأى انسان ان يتوقع خطواتها واحدة واحدة ، لأضاع أهم ميزة توفرها له سرعة الحركة والانقضاض المفاجىء • واتاح لعدوه الاحتشاد سلفا لملاقاته •

فعمرو بن العاص اذن قد عرف اكبر ميزات جيشه ، واوهى مواطن الضعف فى عدوه ، واعتمد على ذلك كل الاعتماد ، فكانت تلك « الكبسات » المفاجئة التى تتم فى آخر موضع يتصور عدوه انه يقدم على اقتحامه • و « عدم معقولية » الهجوم فى نظر العدو هى المبرر الأعظم لمعقوليته فى الاقدام عليه •

ليكن اذن كالصاعقة الهابطة من السماء ، لا يدرى المبتلى بها أين تنقض عليه ومتى ؟ وليتخذ من ترامى أبعاد مصر مزية لمفاجئاته

بدلا من أن تكون خطرا عليه • وليقلب المائدة على الروم ، فبدلا من أن « يلوص » ويغرق فى طوفان اتســاع المكان وكثافة السكان والجيوش ، يجعل المكان المترامى والجيوش الكثيفة هى التى تغرق فى الارتباك والحيرة ، ويطيش حسابها ، ولا يمكنها من لم شتاتها•

فعمرو اذن قد اتبع الخطة الوحيدة ـ ولا أقول المثلى فقط ـ التى تقلب مزية عدوه نقصا ، وتقلب نقص جيشه مزية له ، وليس من قائد عسكرى عبقرى بالمعنى الحديث يمكن أن يتبع أسلوبا خيرا من أسلوب عمرو فى مثل تلك الظروف •

والقائد المطبوع حقا هو الذى يحسن تقدير الموقف ، ويختار الأسلوب الذى « يشل » ضخامة عدوه فاذا هو جثــة لا حول لهــا ولا طول •

وكان عدوه الضخم بحسب تصوراتنا الحديثــة أشــبه بجيش كبير من مشاة ومدرعات ثقيلة بلا طيران • وكان عمرو صاحب قوة قليلة العدد كلها أشبه بالطائرات • وانقض عمرو هنا وهناك حتى شل عدوه وأرغمه على التسليم • ولم يكن من التسليم مناص ••

★★★

ولا بد بعد هذه النظرة الشــاملة على أســـلوب الفتح ، أن نعرض للتسليم كيف تم •

لقد كان فى مصر فريقــان : أهلها القبط ، والرومان • أما

أهلها القبط فكانوا يتوسمون فى العرب الخير لما سمعوه عن فتوحهم فى الشام ، وانهم حافظوا على الكنائس والديور • وتركوا للأهالى الحرية الدينية كاملة • ولم يقسروا أحدا على شيء يتصل بعقيدته أو ملته • وانهم يجلون القسوس والرهبان • ويحمون الصوامع والهياكل والصلبان • وهذا نقيض ما أرهق القبط من قيرس والى هرقل الذى سام القبط العذاب ليحملهم على ملة من المسيحية تخالف ملتهم وأشاع فيهم العسف والقتل •

ورأى القبط من سيرة العرب فى شهور حرب الفتح كيف فعلوا مثل ذلك بالاقاليم التى وقعت فى مصر تحت حكمهم ، فلم يقتضوا من أحد غير الجزية المعقولة • وتلك فى نظرهم حالة ما كانوا ليحملوا بخير منها • فلا ضير عليهم ان يخلف الحاكم الجديد الحاكم القديم ، فهم على الحالين محكومون ، ولكنهم عسيون الآن أن يجدوا الأمن والدعة والراحة وحرية العبادة بعد العسف والخوف والاستبداد ومصادرة العقيدة •

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن العصر لم يكن ـ فى أى مكان ـ عصر عصبيات قومية ، فالحكم الرومانى الطويل أقر فى النفوس أن الناس بين حاكم ومحكوم • وان الحاكم قد يكون من غير جنس المحكوم • فالعصبية القومية لم تكن قد تفشت بعد • ولذا انتفت الغضاضة من استبدال العرب بالرومان •

وقد قضى صلح الاسكندرية فى أول المحرم سنة ٢١ هجرية

(١٠ من ديسمبر سنة ٦٤١ ميلادية) بأن يؤدى الأهلون الجزية دينارين عن كل رجل قادر على العمل ، وان تجلو الجيوش الرومانية فى مدى احد عشر شهرا وتحمل معها من متاعها ما تشاء. وان تباح للمسيحيين عبادتهم ، وتصان لهم معابدهم ، وان يؤذن لليهود بالبقاء فى الاسكندرية .

وبذلك تم الفتح على الوجه الذى أرضى الفاتح وأرضى المحكومين ...

مكتبة الإسكندرية

ولا يمكن أن يطوى الحديث عن عمرو فاتح مصر دون الحديث عن فعلة منسوبة له ، لها دوى فى تاريخ الحضارة والفكر البشرى • ونعنى بهذه الفعلة ما قيل من ان عمرو بن العاص أحرق مكتبة الاسكندرية ، وفيها أعظم كنوز الثقافة المنحدرة عن العالم القديم كله ، فرعونية ويونانية ورومانية •

ونعرض الآن لأقدم وأشهر رواية لهذه الفعلة ، وهى رواية أبى الفرج :

« كان فى ذلك الوقت (وقت فتح الاسكندرية) رجل اشتهر بين المسلمين اسمه (حنا الأجرومى) وكان من أهل الاسكندرية ، وظاهر من وصفه انه كان من قسوس القبط، ولكنه أخرج من عمله اذ نسب اليه زيغ فى عقيدته • وقد أدرك ذلك الرجل فتح العرب للاسكندرية واتصل بعمرو ، فلقى عنده حظوة لما توسم فيه من الذكاء بصفاء ذهنه وقوة عقله ، وعجب مما وجد عنده من غزارة علم ، فلما أنس الرجل من عمرو ذلك الاقبال قال له يوما : لقد رأيت المدينة كلها وختمت على ما فيها من التحف ولست أطلب اليك

شيئا مما تنتفع به ، بل شيئا لا نفع له عندك وهو عندنا نافع . فقال له عمرو : وماذا تعنى بقولك ؟ فقال : أعنى بقـولى ما فى خزائن الروم من كتب الحكمة . فقال له عمرو ! ان ذلك الأمر ليس لى أن أقطع فيه رأيا دون اذن الخليفة . ثم أرسل كتابا الى عمر يسأله فى الأمر فأجابه عمر قائلا : « وأما ما ذكرت من أمر الكتب فاذا كان ما جاء بها يوافق ما جاء فى كتاب الله فلا حاجـة لنـا به ، واذا خالفه فلا ارب لنا فيه . وأحرقها ! » فلما جاء هذ الكتاب الى عمرو أمر بالكتب فوزعت على حمامات الاسـكندرية لتوقد بها فما زالوا يوقدون بها ستة أشهر . فاسمع وتعجب ! » .

وقد كتب هذا الكلام أبو الفرج فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر أى بعد فتح الاسكندرية بستة قرون تقريبا . وتعتبر هذه الرواية أقدم ما ذكر فى هذا الموضوع . وعنه نقل أبو الفداء فى القرن الرابع عشر ، ثم المقريزى فى خططه .

ويقول الدكتور ألفريد بتلر : « ان اغفال حنا النقيوسى لتلك الواقعة يضعف من شأنها . وان كان القبط فى مصر لا تزال بينهم تلك القصة يتناقلونها مع بعض الخلاف فيها ، اذ يجعلون مدة الايقاد بالكتب سبعين يوما بدلا من ستة شهور . ولكن ليس من دليل يدل على أن أصل هذه الرواية اقدم من ايام ابى الفرج . ومعنى هذا بعبارة أخرى ان هذه القصة المتداولة بين القبط لعلها مأخوذة عن

مؤلفى القرون الوسطى • وهناك عوامل للشك تحيط بتلك القصة تجعلها غير راجحة وتجعل دلالتها غير موثوق بها » •

ويتعـرض المؤرخ الانجـليزى « جيبـون » صـاحب تاريخ اضمحلال وسقوط الدولة الرومانية الشـهير لهذه المسـألة ، فيثنى على سعة أفق عمرو ويقول أن صداقته لحنا الأجرومى الفيلسـوف الأديب الملقب بفيليبونوس وآخر تلاميذ أمونيوس دليل على سماحته وحبه للمعرفة ، ثم يروى قصة أبى الفـرج ويقـول ان حمامات الاسكندرية التى وزعت عليها هذه المجلدات كان عددها يومئذ أربعة آلاف حمـام ! وان اسـتمرار ايقادها بهـذا الوقود الثمين الذى لا يضارعه وقود مدى ستة أشهر اكبر دليل ـ ان صحت الواقعة ـ على ضخامة تلك المكتبة •

ثم يستطرد جيبون بعد ذلك على الفور فيقول أن نشر كتاب أبى الفرج فى الترجمـة اللاتينية اتاح لهذه « القصة » ان تذيع ، بحيث كان كل دارس وعالم يجد من مراسم التقوى ان يلعن العرب بسبب هذه الجريمة الكبرى فى حق الثقافة والحضارة والعلم والفن وكل عبقريات العالم القديم ، ويجـد من حماسـته للعلم ما يمده بالحرارة فى التشهير بعمرو وبالعرب ••

وفى أعقاب ذلك يدهش جيبون قراءه بقوله :

« وأنا من جانبى أميل ميلا شديدا الى جحد الواقعة نفسها

وسائر ما يترتب عليها من النتائج !••• فشهادة مؤلف كأبى الفرج يكتب فى هذه المسألة بعد ستة قرون ، وهو أجنبى عن مصر يقيم فى مكان بعيد كل البعد عن تخومها – ترجح عليه رجحانا شديدا دلالة الاغفال أو الصمت عن الاشارة الى شىء من ذلك فى كتابات أقدم مؤرخين لهذا العهـد ، وكلاهما مسيحى ، وكلاهما من أهل مصر نفسها ، وأقدمهما البطريق يوتيخوس ، وكلاهما أسهب فى وصف فتح العرب للاسكندرية وأفاضا فى ذكر تفصيلاته » •

ويضيف جيبون حجة عقلية غير تلك الحجة التاريخية الفنية فيقول :

« ان الأمر الصارم المعزو الى عمر بن الخطاب يرفضه التاريخ الاسلامى السليم والسنة المحفوظة عن النبى وأئمة المسلمين : فكتب النصارى واليهود فى نظر الشرع الاسلامى اذا ماوقعت فى يد الغزاة المسلمين لا يجوز لهم احراقها بالنار • وأما كتب أهل الاوثان فى الصنائع والفنون والعلوم والتاريخ والشعر والفلسـفة أو الحكمـه فتحول الى ما فيه فائدة المسلمين اذ يأخذون منها ما ينفعهم فى أمور دنياهم ••• ويجب الا نغفل ما فى تاريخ مكتبة الاسـكندرية من كوارث قبل الفتح العربى لا نحسبها قد أبقت منها باقية • وأشهر هذه الكوارث ذلك الحريق غير المتعمد الذى أشعله يوليوس قيصر فى مرافق المدينة حول الميناء كوسيلة من وسائل الدفاع عن نفسه ، وهو حريق لا يمكن على فداحته ان تلحق منه يوليوس قيصر سبة

البربرية أو التعصب ، لأنه غير مقصود ، وكان أشد الآسفين لعواقبه ولكن ثمة كارثة أكبر جريرتها أدهى وأشد ، وأعنى بها احراق المسيحيين وتخريبهم المتعمد المدروس بعناية لكل ما يمت الى العبادة والثقافة الوثنيتين . لقد خربوا مدارس الفلسفة ، وقتلوا فلاسفة منهم هيباشيا ، وحطموا بدائع التماثيل الفنية بلا تردد ، وأحرقوا الكتب . وكان معظم أولئك المتعصبين من الجهال بطبيعة الحال . ويشهد المؤرخون المعاصرون منذ حكم الانطونيين الى عصر ثيودوسيوس أن القصر الملكى ومعبد سيرابيس أو (السيرابيوم) لم يعد فيهما أثر للسبعمائة ألف مجلد التى جمعها البطالمة هناك . يؤكدون ان مؤلفات المخالفين للأرثوذكس من الآريين والمونوفستيين جعلت وقودا للحمامات . فناهيك اذن بمؤلفات الوثنيين ! » .

أما الدكتور ألفريد بتلر فانه ينحى على القصة بالنقد من زاوية اخرى فيقول :

وما كل ذلك سوى نسيج من الأباطيل ! فإن تلك الكتب اذا كان قد قضى عليها بالحرق لأحرقت حيث هى ولا تكلف الناس حملها ليفرقوها بين أربعة آلاف حمام ! وما كان عمرو بن العاص وقد ابى أن يعطيها لصديقه حنا فيليبونوس ليجعلها فى أيدى أصحاب الحمامات فى المدينة ، فانه لو فعل ذلك لاستطاع حنا فيليبونوس أو سواه من الناس أن يستنقذوا عددا عظيما منها بثمن بخس فى تلك الشهور الستة التى قيل انها جعلت وقودا للحمامات فيها . وبعد

فمما لا شك فيه ان معظم الكتب فى مصر فى القرن السابع الميلادى (وقت الفتح) كانت من الرق أى الجلد المعالج بطريقة خاصة وهو لا يصلح للوقود كالورق أو البردى ، وما كان أمر الخليفة عمر المزعوم باطعام النار اياها ليجعل تلك المخطوطات من الرق تصلح للاحراق وهى بطبيعتها ليست كذلك ! وناهيك بأن تظل وقودا لأربعة آلاف حمام مائة وثمانين يوما ! الا أن ايراد القصة على هذه الصورة مضحك ، وحق لنا حين نسمعها تذيع وتتردد كل تلك السنين أن نعجب لذلك .

وأخلق بعجبنا اصرار البشر على قالة السوء التى يدحضها أيسر التمحيص والنظر العقلى العادى ...

ويمضى الدكتور ألفريد بتلر فى نقده للقصة ، فيطعنها طعنة «موضوعية» من ناحية التحقيق التاريخى . فان حنا فيليبونوس الذى تذكر القصة انه كان صديق عمرو من المقطوع به أنه لم يكن على قيد الحياة حين فتح عمرو الاسكندرية سنة ٦٤٢ ميلادية ، لأنه كان يكتب ويدون أبحاثه سنة ٥٤٠ ميلادية على الأكثر ، ولعله كان يكتب قبل سنة ٥٢٧ — وهى تاريخ تولية جاستنيان — أى انه عاش فى القرن السادس . وان صح انه أدرك القرن السابع فلا يعقل أن يكون قد عاش فيه اكثر من بضع سنين ، لا تصل بحال الى اثنتين وأربعين سنة ! فلا بد انه مات قبل دخول عمرو الاسكندرية فاتحا بأربعين سنة أو ثلاثين على اقل التقدير . وهذا كاف لانهيار لباب

القصة وسندها التاريخى كما يرويها ابو الفرج . ثم لا ننسى ما ذكره بلوتارك فى تاريخه عن يوليوس قيصر :

« ولما رأى قيصر اسطوله يقع فى يد عدوه اضطر ان يدفع الخطر عن نفسه بالحريق فامتدت النار من المراسى فى الميناء وأحرقت المدينة » . وروى الفيلسوف سينيكا هذه الواقعة فقال : « أحرقت فى مدينة الاسكندرية مكتبة بها أربعمائة ألف مجلد » . وكتب ديوكاسيوس : « وامتدت النيران الى ما وراء المراسى بالميناء فقضت على اهراء القمح ومخازن الكتب ، ويقال ان هذه الكتب كانت كثيرة العدد عظيمة القيمة » .

وأما « أميانوس مرسلينوس » فقال فى وصف الحريق :

« كانت مكاتب الاسكندرية لا تقوم بثمن ، واتفق الكتاب الاقدمون على انها كانت تحوى سبعمائة ألف كتاب بذل فى جمعها البطالمة جهدا كبيرا ولقوا فى سبيل ذلك عناء عظيما وقد أحرقتها النيران فى حرب الاسكندرية عندما غزاها قيصر وضربها » .

ويستطرد الدكتور بتلر فيقول فى تسلسل منطقى واضح متين الحلقات :

« ولا يستطيع أحد أن يقول أن كل كتب الاسكندرية قد ضاعت فى أثناء تلك الحروب الشعواء التى شنت على المكتبات ، أمثال حرب دقلديانوس على مؤلفات المسيحيين ، وحرب ثيوفيلوس على

مؤلفات الوثنيين، فلا بد أنه بقيت بعد تخريب المكتبات العامة الكبرى بقية صالحة من تلك الكتب فى حوذة أفراد الناس ، أو فى مكتبات الأديرة البعيدة • وان بقاء العلم فى الاسكندرية لم تنطفىء انواره ليقوم وحده دليلا على بقاء الكتب وانتفاع الناس بها • غير اننا نستبعد كل الاستبعاد ان تكون مكتبة السيرابيوم الكبرى قد بقيت الى القرن السابع ونحن لا نجد فى كتابة أحد من مؤلفى القرنين الخامس والسادس ما يدل على وجودها دلالة صريحة لا لبس فيها ولا ابهام• ولنذكر فى هذا الصدد مثلا واحدا ، ألا وهو « حنا مسكوس » وقد زار مصر مع صديقه « صفرونيوس » قبل فتح العرب بسنين غير طويلة وكان هذان الرجلان من محبى العلم ولهما شغف كبير بالكتب وما يتصل بها ، وقد جابا كثيرا من انحاء مصر ، وأقاما فيها زمنا طويلا ، ولكنا لا نرى فى كتاب من كتبهما مهما قلبناها ذكرا لمكتبة عامة فى البلاد ، اللهم الا مكتبات خاصة يملكها آحاد الناس ••• ولا يتأتى بعد كل هذا ان يقول قائل أن الاسكندرية كانت بها مكتبة عامة كبرى عندما فتحها العرب •

« يضاف الى هذا أن العرب لم يدخلوا مدينة الاسكندرية الا بعد أحد عشر عاما من الفتح ـ بنص المعاهدة ـ وقد جاء فى شروط الصلح أن للروم فى مدة هذه الهدنة أن يخرجوا من البلاد اذا شاءوا ، وان يحملوا معهم كل ما استطاعوا نقله من متاعهم وأموالهم• وكان البحر فى هذه المدة خاليا من العدو لا يقف شىء فيه بين الروم

وبين القسطنطينية أو سواها من ثغور البحـر ، فلو كانت المكتبـة الكبرى عند ذلك باقية لطمع النـاس فى ثمن كتبها وأغراهم ذلك بنقلها وان لم يغرهم شىء آخر ، اذ كانت كتبا قيمة عظيمـة القدر يقبل على شرائها كثير من الناس الذين لهم شغف بالعلوم وطلبها . وكان لا بد لمثل هؤلاء أن يكونوا على غـرار الشخص الذى ورد ذكره فى رواية ابى الفرج ، ألا وهو حنا فيليبونوس فيسعوا الى نقل تلك الكنوز العلمية فى وقت الهـدنة اذ كانت الفرصـة ممكنة . وما كانوا ليتركوها تقع فى يد العـــرب الذين لا علم لهم بقيمتهـا العظمى وهم على وشك ان يدخلوا المدينة ...

بل ان ابا الفرج نفسه (وهو صاحب القصة التى يتهم فيهـا العرب بحرق المكتبة) يشهد بأن الاسكندرية بقيت مقصدا لطلاب العلم الى حوالى سنة ٦٨٠ م . (أى بعد الفتح بأربعين سنة) فيذكر أن « يعقوب الأذاسى » ذهب الى الاسكندرية ليتم تحصيله للعلم بعد أن أتم درس اللغة اليونانية والكتاب المقدس فى بعض ديور الشام. وهذا يدل على أن بعض المكتبات كانت لا تزال باقية بمصر عند آحاد الناس وفى الأديرة بعد الفتح ، كما كانت قبله ولو كانت فى المدينة مكتبة عامة كبرى قبل الفتح ثم أحـرقها العـرب عند فتحهم اياها لما أغفل ذكر الحادث رجل مثل « حنا النقيوسى » الاسقف المصرى الذى كتب مؤلفه قبل نهاية القـرن السـابع ، وقد افاض فى ذكر الاسكندرية وتفصـيلات فتحها . وما كان ليغفل حادثة كان لهـا

عظيم الأثر اذ ذهبت بما كان يمكنه الاعتماد عليه فى كتابة تاريخه وحرمت العالم أجمع من كنز من اكبر كنوز العلم حرمانا أبديا •

وبهذا نجزم بأن رواية ابى الفرج لا بد أن تكون قصة من أقاصيص الخرافة ليس لها أساس من التاريخ •

وبذلك تبرأ ساحة عمرو بن العاص والفاروق عمر من جريرة حضارية شنعاء طالما لاكتها الألسنة بغير تثبت •

تأسيس الدولة

تدبير السلم غير تدبير الحرب .

ولكن تدبير السلم الذى يأتى فى اعقاب الحرب ـ ولا سيما الفتح الجديد الذى لا عهد لقائد الجيش أو ولى الأمر به من قبل يحتاج الى خطة قلما تستغنى أو تفترق كل الافتراق عن تدبير الحرب .

فهناك قبل كل شيء تأسيس الدولة الجديدة . وأول ما يحتاج اليه هذا التأسيس تأمين ما يسمى اليوم بالحدود الآمنة ... ثم تثبيت الدولة من الداخل .

وعلى الفاتح الذى يريد الاحتفاظ الى آخر الزمان بفتحه أن يشرع فى الأمرين معا ، بلا ابطاء ، وفى آن واحد تقريبا ، على حسب الدواعى العملية .

ولقد كانت الاسكندرية عاصمة مصر عندما فتحها العرب ، وفيها كرسيها الدينى والمدنى معا . وكان من شروط تسليم

الاسكندرية التى اشرنا اليها آنفا أن تخرج جيوش الروم ومن شاء من سكانها الروم أيضا فى مدة الهدنة التى حددت بسنة تنقص شهرا واحدا • وبذلك خلت مصر من قوة تشغب على العرب الفاتحين أو تستعصى عليهم ، اللهم الا شراذم هنا وهناك ، فى انحاء الدلتا ـ التى كانت متعددة الفروع كثيرة المعابر المائية من القنوات والخلجان والبحيرات ـ تحتمى كل شرذمة منها بحصن فى بلد له عاصم طبيعى من قناة أو بركة أو خليج • ولعل أهم هذه « الجيوب » ما كان فى مدينة المنزلة التى قاومت حاميتها وأهلها شهورا طويلة بعد استسلام الاسكندرية • وفى سبيل فتح هذه المواقع و « تطهير هذه الجيوب » التى تركها عمرو فى انقضاضاته السريعة بجيشه الخفيف الصغير العدد جاءت الأمداد تترى من الفاروق الى عمرو بن العاص بعد أن بدت الثمرة دانية القطوف شهية الجنى • فألفى عمرو نفسه على رأس جيش كثيف بالقياس الى الجماعة التى قدم بها مصر فى بداية الأمر • ووجد من العتاد فى الحصون ومن ألوان السلاح ما زاده احساسا بقوته • وقد أخذت « الجيوب » تسقط تباعا ، فلديه ولا غرابة ما يفيض عن حاجة الفتح الأساسى وما تبقى من ذيوله •

أمام عمرو اذن فرصة سانحة لزيادة رقعة الدولة الجديدة التى كان يشعر ـ وله بعض العذر ! ـ انها دولته الخاصة التى أقامها بعبقريته العسكرية والسياسية • ثم ما كان ليغيب عنه وهو القائد المطبوع ان للروم دولة وشواطىء مفتوحة على بحر الروم فى غرب

الاسكندرية ، فى ليبيا وطرابلس وبرقة • وكانت تلك كلها تسمى المغرب ، أى ما يقع جهة الغرب من مصر •

وأول هذه الأقاليم وأقربها الى الاسكندرية من بلاد الشاطىء الافريقى كان يعرف باسم بنطابوليس ، فوجه اليها جنوده بعد الانتهاء من تسلم الاسكندرية ، غير ملق بالا الى العمليات العسكرية فى أطراف الدلتا •

ولم يكن ذلك عن رعونة أو حب للاقتحام والهجوم على المهالك بحال ، كما اتهمه كثير من شانئيه ، مثل عثمان بن عفان • فالسنة التى انقضت انتظارا لرحيل الروم عن الاسكندرية كانت كافية لدى رجل سريع الحسم من طراز عمرو بن العاص كى يرتب فيها الشئون الداخلية للبلاد ، ويقيم جهازا للحكومة الداخلية يوافق طبيعة الحكم العربى والمزاج العربى• وما أن دخل الاسكندرية نفسها حتى أقر فيها ما يناسبها من النظام أيضا على الأساس الذى اتبعه فى تنظيم سائر أقاليم البلاد • وبذلك فرغ جهده للتوغل نحو الغرب، تأمينا لحدود الدولة الجديدة • ذلك التأمين الذى ما كان لقائد نافذ البصيرة واسع الأفق شامل النظرة فى « تقدير الموقف » ان يغفل عنه • فمصر آمنة من جهة المشرق ، حيث الدولة العربية ، آمنة من الجنوب حيث السودان ولا خطر يمكن أن يأتيها اذن ـ ان لم يكن اليوم فغدا ـ الا من جهة المغرب • ففتح المغرب اذن ليس من باب الهجوم على المهالك بغير مبرر ، بل هو من باب سد منافذ المهالك

سدا له كل مبررات النظر العسكرى الصحيح والتفكير البعيد والحيطة اليقظة • وهذا أسلوب فى التفكير نقيض الرعونة والطيش على خط مستقيم •

لهذا لسنا نجد ملاحظة « الدكتور ألفريد بتلر » فى موضعها الصحيح حين علق على فتح المغرب فى ذلك الوقت بقوله : « وكان عمرو يميل الى التوسع فى الفتح بطبعه » • فالتوسع هنا ليس غاية فى حد ذاته ، بل هو تأمين ضرورى يعتبر التفريط فيه أو الغفلة عنه تقصيرا فى التفكير العسكرى يوشك أن يضيع الفتح الأصلى أو يهدده التهديد الذى لا يدرى أحد عقباه •

والراجح أن بعثة الغزو الى برقة كانت فى أوائل سنة ٦٤٣ ، أى فى السنة الثانية والعشرين للهجرة ، ولم تصادف هذه البعثة مقاومة الى أن بلغت برقة • وبرقة لم تقاوم كثيرا ، بل الراجح أنها صالحت الغزاة على جزية معلومة يؤدونها •

على أن الأمر فى طرابلس الغرب كان على خلاف برقة • ففى طرابلس كانت للروم قوة وحصون ، فأغلقت المدينة أبوابها فى وجه الغزاة العرب وثبتوا للحصار مدة طويلة يقول ياقوت انها بلغت ثلاثة اشهر الى أن اقتحمها العرب وفتحوها عنوة ، وفر المدافعون عنها بما خف حمله وغلا ثمنه عن طريق البحر •

وواصل جيش عمرو الزحف حتى بلغ مدينة « سبرة » قبل

أن يعلم أهلوها بانتهاء أمر طرابلس ، فهاجم الغزاة المدينة مع بزوغ الصباح على حين غرة فأخذوها عنوة .

وعاد عمرو بجيشه بعد ذلك الى برقة حيث اتته قبائل «لعراتة» مذعنة تعلن الدخول فى طاعته ، وهم الكثرة الغالبة من سكان تلك البقاع ...

وعاد عمرو بجيشه الى مصر ، مكتفيا بهذه الفتوح التى تم بها تأمين حدود مصر الغربية الى مسافة طويلة . وكان عقبة بن نافع ساعده الأيمن فى هذه الغزوات ، ولا سيما فيما بين برقة و «زويلة» فى داخل البلاد الليبية قرب السودان كما يقول ياقوت .

***

وكان « ترتيب البيت » الشغل الشاغل بعد تأمين الحدود . وأول ما ينظر فيه مؤسس الدولة الجديدة أن تكون لسلطانه عاصمة يجعل فيها كرسيه كما يقولون . وفى هذا يقول ابن الحكم :

« ان عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبناءها هم أن يسكنها ، وقال : مساكن قد كفيناها (وكل قصورها كانت من المرمر الابيض المصقول حتى لينعكس عليها نور البدر فتغدو وهى فى الليل كأنها فى رائعة النهار !) . فكتب الى عمر بن الخطاب يستأذن فى ذلك . فسأل عمر الرسول : هل يحول بينى وبين

المسلمين ماء ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين ، اذا جرى النيل ! فكتب عمر الى عمرو : انى لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم فى شتاء ولا صيف ! فتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية الى الفسطاط » .

اتخذ عمرو الفسطاط عاصمة اما عن رأى شخصى ، واما بتوجيه من الخليفة الفاروق. ونحن نميل الى جعل ذلك عن رأيه أو اقتراحه ، لأن الاسكندرية مرفأ يصلح عاصمة لولاية تتبع بيزنطة ويصلها بها البحر الأبيض . اما عاصمة الولاية العربية فلا يعقل أن تكون ذلك المرفأ ، بل مكانا بين الزرع والنيل والصحراء ، وموقعها متوسط بين مصر السفلى ومصر العليا ، وعلى طريق الصحراء الى جزيرة العرب. ثم على طريق مجرى الخليج الذى أعاد عمرو فتحه من بابليون الى القلزم (السويس) . فما من موقع اصلح من الفسطاط لحكم ولاية مصر وللاتصال بعاصمة الدولة الكبرى فى المدينة . وكان الفراعنة من قبل يتخيرون هذه المنطقة لعاصمة الوجهين القبلى والبحرى ، ولم تصبح الاسكندرية عاصمة الا على عهد الغزو المقدونى حيث الصلة بالبحر أولى بالاهتمام والملاحظة عند اقامة « كرسى الملك » ..

ويسوقنا حديث انشاء العاصمة الجديدة وما لحظ فى اختيار موقعها على النحو المتقدم الى اعادة حفر الخليج الذى اشرنا اليه .

وكان معروفا من قبل بخليج تراجان • « وكان ذلك الخليج يخرج من النيل الى شمال بابليون بقليل ـ كما يقول الدكتور بتلر ـ فيمر بمدينة عين شمس • وقد أهمـل الروم أمره حتى سـده الطين • وهذا الخليج اقدم عهدا من حكم تراجان ـ وانما سمى باسمه لأنه أعاد حفره وأصلحه • وأول من احتفره فرعون مصر ناخا والذى احتفر ايضا خليجا فى برزخ السويس من البحر الأبيض الى البحر الأحمر ! » •

ويذكر ابن عبد الحكم مناسبة الاسراع بفتح هذا الخليج واعادة حفر ما استد منه فيقول :

« أصاب الناس بالمدينة جهد شديد فى خلافة عمر بن الخطاب فى سـنة الرمادة • فكتب الى عمـرو بن العاص وهو بمصر : من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى عمرو بن العاص • سلام ! أما بعد ، فلعمرى يا عمرو ما تبالى اذا شـبعت أنت ومن معك أن أهلك أنا ومن معى ! فياغوثاه ثم ياغوثاه ثم ياغوثاه ! فكتب اليه عمرو : لعبدالله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص • أما بعد ، فيا لبيك ثم يالبيك! وقد بعثت اليك بعير عظيمة أولها بالمدينة وآخرها بمصر يتبع بعضها بعضا ! فلما قدمت هذه العير على عمر وسع بها على الناس • ودفع الى أهل كل بيت بالمدينة وما حولهـا بعيرا بما عليـه من الطعام ! وبعث عبد الرحمن بن عـوف والزبير بن العـوام وسـعد بن ابى

وقاص يقسمونها على الناس • فدفعوا الى أهـل كل بيت بعيرا بما عليه من الطعام ليأكلوا الطعام وينحروا البعير ويأكلوا لحمه ويتأدموا بشحمه ويحتذوا جلده • وينتفعوا بالوعاء الذى كان فيه الطعام لما أرادوا من لحاف أو غيره • فوسع الله بذلك على الناس • فلما رأى ذلك عمر بن الخطاب حمد الله كثيرا • وكتب الى عمرو بن العاص أن يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر • فقدموا عليه ، فقال عمر: يا عمـرو ! ان الله فتح على المسـلمين مصر • وهى كثيرة الخـير والطعام • وقد ألقى فى روعى لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين والتوسعة عليهم حتى فتح الله عليهم مصر وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين أن أحفر خليجا من نيلها حتى يسـيل فى البحـر ، فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام الى المدينـة ومكة ، فان حمله على الظهر (أى الابل وما اليها) يبعد ، ولا نبلغ منه ما نريد • فانطلق أنت وأصحابك فتشاوروا فى ذلك حتى يعتدل فيه رأيكم » •

وينتهى ابن الحكم من هذه الرواية بقوله بعد استطراد :

« فقال له عمر : فانطلق يا عمرو بعزيمة منى حتى تجد فى ذلك ، ولا يأتى عليك الحول حتى تفرغ منه ان شاء الله • فانصرف عمرو فجمع لذلك من الفعلة ما بلغ منه ما أراد • ثم احتفر الخليج الذى فى حاشية الفسطاط ويقال له خليج أمير المؤمنين ، فساقه من النيل الى القلزم ، فلم يأت الحول حتى جرت فيه السفن فحمل فيه

ما أراد من الطعام الى المدينة ومكة ، فنفع الله بذلك أهل الحرمين وسمى خليج أمير المؤمنين » •

ولكن لا يلبث ابن الحكم أن يروى رواية اخرى مؤداها أن عمرو بن العاص هو الذى اقترح على الخليفة الفاروق حفر ذلك الخليج وهو التاجر الرحالة القديم : « قد عرفت يا أمير المؤمنين أن كانت تأتينا سفن فيها تجار من أهل مصر قبل الاسلام • فلما فتحنا مصر انقطع ذلك الخليج واستد وتركته التجار • فان شئت أن نحفره فننشىء فيه سفنا تحمل الطعام الى الحجاز فعلته ! فقال له عمر : نعم فافعل ! » •

وقيل كذلك ان عمرو بن العاص كان ينوى حفر خليج بين بحيرة التمساح والبحر الأبيض ، على نحو ما أحدثته قناة السويس اليوم ، ولكن الفاروق ابى عليه ذلك • وانكره قائلا انه يمكن الروم من السير الى البحر الأحمر وقطع السبيل على من أراد الحج •••

ويبدو أن حفر خليج أمير المؤمنين كان ـ شأنه شأن سائر أعمال الرى الكبرى فى مصر القديمة ـ بطريق السخرة • والى ذلك اشار حنا النقيوسى منددا بالشدة التى كانت على الناس فى تلك السنة من اعمال الحفر السريع حتى أعيد فتح الخليج فى مدى عام واحد من العمل بالوسائل البدائية المعروفة •

وكل هذه الاعمال التأسيسية من تأمين الحدود ، واخضاع الاطراف ، وتخطيط عاصمة جديدة ، واصلاح الطرق التى تسهل تحركات الجيوش ، واعادة فتح الخليج ليكون أداة امداد بالمئونة للحجاز ، ووسيلة سريعة لوصول الأمداد بالرجال من الحجاز عند الضرورة • نقول ان ذلك كله يعطينا صورة صالحة لقائد مطبوع يحسن تأسيس الدولة والتمكين لها ولا يجد ذلك مختلفا عن القصور الشامل لمعارك القتال والفتوح •

أسلوب الحكم

أول ما يتبادر الى الذهن فى ارساء قواعد الحكم ان العدل أساس الملك ...

وليس العدل امرا مطلقا ، بل له فى السياسة جانبه النسبى ، فلا شك أن دراسة احوال البلد الذى يقام فيه العدل ضرورية لاتخاذ الخطة التى تناسب هذه الأحوال وتلائم ظروف أهل البلد فى زمنهم ذاك بحسب بيئتهم ومواردهم .

والى هذا نفذت بصيرة عمرو بطبيعته العملية فأحاط بأحوال مصر الجغرافية الخاصة التى تختلف كل الاختلاف عن أحوال الحجاز . وتختلف كثيرا عن أحوال الشام بسبب اعتماد مصر الكلى فى الزراعة على ذلك النهر الكبير الذى لم يعرف العالم القديم له نظيرا فى الضخامة وانتظام الفيضان ، حتى ظنوا انه ينبع من الجنة وينحدر من السماوات العلى هبة لأهل هذا الوادى السعيد ! ولقد حق للمؤرخ الاغريقى هيرودوت ان يقول ان مصر هبة النيل .

ولقد أحسن عمرو بن العاص فهم طبيعة مصر الزراعية

وظروفها الجغرافية والاقتصادية الخاصة ، وأحسن كذلك فهم طبيعة العمران فى مدن مصر الكبرى وما ينبغى لهذا العمـران من دعائم الصناعة والفن والخدمة المدنية الدقيقـة التى ينهض بها الخبراء من أهلها ولا معرفة للعرب بها .

وليس أدل على ذلك مما حـدث بعد فتح الاسكندرية ممـا يرويه ابن عبد الحكم . فقد غادر الاسكندرية كل من كان بها « من أهل القوة . وركبوا السـفن . وكان بهـا مائة مركب من المراكب الكبار حملوا فيها ما قدروا عليه من المال والمتاع والأهل . وبقى من بقى من الأسارى ممن بلغ الخراج ، فأحصى يومئذ ستمائة ألف سوى النساء والصبيان » فاختلف الناس فى أمرهم وطلبوا من عمرو أن يوزعهم على الجند ملك يمين كما كان الحال فى غزوات الحجاز على حسب القسمة المألوفة من قبل .

ويستطرد ابن الحكم قائلا :

« كان اكثر الناس يريدون القسمة » .

وهذا كلام ذو بال . لأن عمـرو بن العـاص أدرك بفهمه الواسع اختلاف الأمر فى بلاد الحضارة والعمران الكبير عن أحوال البادية وقراها . وادرك ان اقتسام الصناع وأصحاب المهن ليكونوا رفيقا للجند فرادى من شأنه أن يقضى على العمران فى الاسكندرية، وهى حـاضرة الحـواضر فى مصر ... فكتب يعـارض التقسـيم

ويستطلع رأى أمير المؤمنين • وأدرك الفاروق ما أدركه عمرو ، فكتب اليه :

« لا تقسمها (أى الغنيمة) وذرهم يكونوا خراجهم فيئا للمسلمين وقوة لهم على جهادهم لعدوهم • فأقرها عمرو وأحصى أهلها وفرض عليهم الخراج ، فكانت مصر صلحا كلها يفرض دينارين على كل رجل ، لا يزاد على أحد منهم فى جزية رأسه اكثر من دينارين • الا أنه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الارض والزرع ، الا الاسكندرية ! فانهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر ما يرى من وليهم » •

ويعلل ابن سعيد ذلك بقوله :

« لأن الاسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد ، ولم يكن لهم صلح ولا ذمة ! »

ونرى نحن غير هذا التعليل • فالاسكندرية بلد حضارة وصناعة ومهن وتجارة بحرية ، وليست ريفا وزراعة• ولذا لم يكن من العقل والعدل أن يفرض عليها ما يفرض على الزراعة من خراج ثابت محدد • وانما ذلك كاختلاف ضريبة الأطيان الزراعية عندنا اليوم عن ضرائب الأرباح التجارية والصناعية • وهذا دليل قاطع على حسن بصر عمرو بن العاص بأحوال العمران فى دولته الجديدة•

والى هذا أعزو قوله لبعض من استوضحه مقدما ما يراد منهم

من اخــراج ، وان يجعله قدرا ثابتا ، ولعله صاحب « اخنا » كما يقول ابن الحكم :

« فقال عمرو وهو يشير الى ركن كنيسة : لو أعطيتنى من الركن الى السقف ما أخبرتك ! انما انتم خزانة لنــا ••• ان كثر علينا كثرنا عليكم ، وان خفف عنا خففنا عليكم ! » •

★★★

وكان عمرو يعرف ما لعوامل الاستقرار النفسى من أثر كبير فى احوال أهل مصر حينئذ وشعورهم بالعدل وطمأنينتهم واخلادهم للحكم الجديد . فقد علم ما كان بين أهل مصر وبين الروم من عداوة ولدد بسبب اختلاف الملل ، فما حدا ببطريق القبط بنيامين (الذى يسميه العرب احيانا أبو اليامين) الى الهرب سنوات طويلة الى مكان لا يعلمه أحد • ولم يكن للمسلمين اهتمام بمنازعات الملل المذهبية واحزاب المجامع الكنسية ، فأقروا الحرية الدينية، ورفعوا الاضطهاد عن القبط • وكتب عمرو أمر أمان على هيئة منشور لا تخصيص فيه :

« اينما كان بطريق القبط بنيامين نعده الحماية والأمان وعهد الله • فليأت البطريق الى ها هنا فى أمان واطمئنان ليلى أمر ديانتــه ويرعى أهل ملته » •

ولم يلبث بنيامين أن برز من مكمنــه ، وعــاد الى كرسيــه الرسولى فى الاسكندرية ، فدخلها دخول الظافر بعد غيبــة طالت ثلاثة عشر عاما ، وتلقاه النــاس هنــاك بفرح لا يوصف • ويقول

ســاويرس ان عشرا من سنوات هربه واختفــائه كانت فى حكم هرقل ، وثلاثة كانت فى حكم المسلمين • وكان ذلك فى سنة ٦٤٤ ميلادية وأواخر سنة ٢٤ هجرية •

والحرية الدينية فى عهد عمرو كانت مكفولة فى مصر للجميع على السواء ، حتى انه لم يضطهد مذهب الرومان واتباعه ، بل جعل لهم من الحرية فى عباداتهم وشــعائرهم وكنائســهم مثــل ما جعله للأقباط •

★★★

ولكن كيف كان جهاز الحكم الذى استخدمه عمــرو لتنفيذ سياسته المستنيرة لعمران البلاد وزيادة رخائهــا ، وبالتــالى لزيادة خراجها ؟

لم يغير جهاز الحكم !

وهذا يعنى انه لم ينزع المناصب من أهل البلاد ليستأثر بهــا العرب ، بل تركها لمن هم أعلم بها ، ليكونوا مسئولين عن أعمالهم امام الوالى ، حتى لا تضطرب الأمور بانتقــال المقــاليد كلها ماليــا واداريا الى من لا عهد لهم بذلك البناء الحضــارى المعقد العريق ، ولا بالاحــوال الخاصــة بكل منطقة وكل غلة ، وما يتبع ذلك من اختلاف العرف والطباع التى تلزم لها سياسات متباينة •

وليس أدل على الاطمئنان الى عــدل عمــرو ان بعض كبــار الاداريين الروم بقوافى مناصبهم ! أما من نزح منهم أنفة من العمل

تحت سلطان العرب فقد حل محلهم من أهل البلاد القبط على الفور من نهضوا بالعبء • فما مر قليل زمن حتى صار عمال الدولة العربية فى مصر كلهم تقريبا من الاقباط !•

وهى سياسة بعيدة النظر تشيع الطمأنينة للحكم الجديد ، وتترك الأمور التنفيذية فى يد الخبراء بها • وهم بعد حريصون على استدامة رضى الحاكم الجديد باخلاص الجهد ، وهو اخلاص تنتفع به بلادهم وعشيرتهم كما ينتفع به الحاكم ودولته •

ولعل أهم ما يهتم به حاكم فاتح جباية الضرائب •

وكانت الضرائب على نوعين :

الجزية على الأشخاص •

والخراج على الأموال •

أما الجزية فنحن نعلم انها كانت على أهل الذمة دينارين على كل رجل ، ولا تفرض على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا الشيخ الفانى ولا على النساء والرقيق والمجانين والمعدمين . على أن هذه الجزية لم تكن بهذا المقدار الا فى مجموعها العام • وبهذا المعدل الذى ذكرناه • بيد انها لم تكن تحصل منهم بالتسوية ، بل كانت الجزية على ثلاثة مستويات : الفقراء وأوساط الناس والأغنياء• يخفف عن الفقراء ليضع ذلك على الاغنياء • ويترك أوساط الناس على حالهم وهو جزية الدينارين •

وهذه لعمرى سياسة عادلة لا تفيد خزانة الدولة ـ وكانت تسمى بيت المال ـ ولكنها تطبق ما نسميه اليوم العدالة الاجتماعية ، ويندرج تحت هذا حد أدنى يعفى من الضرائب مع استخدام الزيادة التصاعدية حسب شرائح الدخل .

وأما الخراج فسار فيه عمرو على القاعدة المتبعة أيام الرومان ولكن بشيء من التبصر . فكان الخراج يتغير بحسب علو الفيضان ووفرة الغلة ، وتقرر ذلك لجنة في كل قرية تنظر فى المحصول وتقدر الخراج بما يناسبه ، وتجعل من المال الذى يجمعونه جزءا فوق الخراج المطلوب لبيت المال يصرفونه فى اصلاح أحوال القرية ومرافقها الدينية والمدنية ، وللانفاق على ضيافة العرب . وكانت هذه الضيافة حقا منصوصا عليه للعرب منذ الفتح .

ومما يذكر لعمرو بن العاص فى باب العدالة الاجتماعية أيضا انه ألغى الامتيازات الضريبية ، وجعل الخراج على الأرض كلها . لا شأن له بأصحابها : فان تملك الأرض مسلم لزمه خراجها كالقبطى سواء بسواء . فليس يعفى المسلم الا من الجزية لأنها مفروضة على النفوس . أما الخراج فعلى الأرض والزراعة والتجارة وما أشبه بصرف النظر عن الأشخاص وديانتهم وجنسيتهم . وما كذلك كان الأمر على عهد الرومان .

أفول الحكم

ما من شك فى أن عمرو بن العاص توخى فى جباية الخراج حد القصد والاعتدال ، لا ميلا منه للرأفة ميلا عاطفيا محضا ، بل عن بصر بأحوال العمران ، وأن رخاء أهل البلاد شرط أساسى لزيادته ، مما يعود بالفائدة على الخزانة بزيادة الضرائب فى آخر الأمر زيادة تتناسب مع ازدياد العمران .

والدليل على ذلك ما ثبت من غضب الفاروق واستزادته الخراج أكثر من مرة . حتى لقد ورد فى بعض النصوص المحفوظة لبعض كتب الفاروق الى عامله على مصر عمرو بن العاص :

« فكرت فى أمرك والذى أنت عليه فاذا أرضك واسعة عريضة رفيعة وقد أعطى الله أهلها عددا وجلدا وقوة فى بر وبحر، وانها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكما مع شدة عتوهم وكفرهم . فعجبت من ذلك . وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك (أى ايام الرومان) على غير قحوط ولا جدب . وقد أكثرت فى مكاتبتك فى الذى على أرضك من الخراج ، وظننت أن ذلك سيأتينا على غير نزر ، ورجوت

أن تفيق فترفع الىّ ذلك ، فاذا أنت تأتينى بمعاريض تعبأ بها لا توافق الذى فى نفسى ••• ولست أدرى ما الذى نفرك من كتابى وقبضك ! فلئن كنت كافيا صحيحا ان البراءة لنافعة ! وان كنت مضيعا نطعا ان الأمر لعلى غير ما تحدث به نفسك !••• وعندى باذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه ، فلا تجزع ابا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه !••• » •

وكان جواب عمرو أن الفراعنة على كفرهم كانوا أرغب فى عمارة أرضهم من العرب ، ثم عاتبه فى عنفه عليه واتهامه اياه عتابا بليغا :

« ولقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لأماتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا ••• معاذ الله من تلك الطعم ومن شر الشيم والاجتراء على كل مأثم ، فان الله قد نزهنى عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضا ولم تكرم فيه أخاً ! والله يا بن الخطاب لأنا حين يراد ذلك منى أشد اغضابا لنفسى ولها انزاها واكراما • وما عملت من عمل أرى على فيه متعلقا • ولكنى حفظت ما لم تحفظ • ولو كنت من يهود يثرب ما زدت ! يغفر الله لك ولنا ! وسكت عن اشياء كنت بها عالما ، وكان اللسان بها منى ذلولا • ولكن الله عظم من حقك ما لا تجهل ! ••• » •

والحق أن الفاروق كان يعلم أن عمرو بن العاص شديد

الحب للمال ، وقام بنفسه أنه يستأثر بجانب مما يجمعه من مصر لنفسه ، حتى لقد كتب اليه :

ـ لم أقدمك الى مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك !

ثم أرسل اليه محمد بن مسلمة ليجبى من المال فوق ما جبى عمرو ، وليقسم ابن العاص ثروته ، على قاعدة استصفاء « الكسب غير المشروع » •

ولما تولى الخلافة عثمان عزل ابن العاص بتلك الحجة وولى أمير الصعيد عبد الله بن أبى السرح على مصر كلها فزاد الخراج فى عهده مليونى دينار فى السنة • فقال عثمان لعمرو بن العاص :

ـ ان اللقاح بمصر بعدك قد درت ألبانها !

فأجابه عمرو بتهكم واضح :

ـ ولكنها أعجفت فصيلها !

أى هزل بنوها لقلة ما يجدون من الطعام الذى هو حق لهم قبل أى أحد !

ولا يسع المنصف أن يمر بهذا السلوك الادارى والمالى من جانب عمرو بن العاص بغير وقفة مستأنية • فليست المسألة ها هنا مسألة خلاف على مقدار خراج ، بل هى خلاف على أسلوب الحكم نفسه فى البلد المفتوح •

فلو أن عمرو بن العاص كان الوالى الذى يهتم بتعزيز مركزه بأى ثمن ، لحرص على ارضاء الخليفة عمر ، ثم الخليفة عثمان من بعده كل الارضـاء ، وليكن بعد ذلك ما يكون ! وما كان يجهل عمرو أن عمر ابن الخطاب كان قمينا ان أمعن فى اغضابه « ان يعزله فيسىء عزله » كما قال له فعلا فى بعض رسائله ، وكما فعل حرفيا بسيف الله خالد بن الوليد ...

ولكن عمرو بن العاص كان قائدا مطبوعا بكل معنى الكلمة ، يصدر عن تصور كلى شامل للعمل الذى يتولاه ، ويدرك أن معركة السلم مثل معركة الحرب لا بد لها من تمهيد وحياطة وتدعيم وتأمين للمصادر والموارد . ولذا أدرك لا دولة الا برجال ، ولا رجال الا بمال ، ولا مال الا بعمران ـ ولا عمران الا بعدل !

ورب قائل أن عمرو بن العـاص انما كان يحب جمع المال لنفسه وأهله حبا جما ..! ولسنا نمارى فى ذلك .. ولكن أسلوب جمع المال يختلف جدا بين انسان ضيق الأفق قصير النظر ، وبين انسان واسع الأفق بعيد النظر : فالأول منهما لا يبالى أن يتحيف ويدمر مصادر المال على المدى الطويل ، فى نظير زيادة عاجلة يحصل عليها ، فهو ذو عقلية مخـربة يسيطر عليها الجشع الأبله ، كذلك الرجل الذى تقول الأسطورة انه ذبح الدجاجة التى تبيض الذهب كل يوم ، كى يحصل على كل ما فى جوفها من كنوز الذهب دفعة واحدة ، فلما ذبحها لم يجد بداخلها شـيئا ! اما الثـانى منهما فهو

حقيق بلقب « مؤسسى الدول » لأنه يراعى الدجاجة ويحافظ على حياتها وتقدمها فى الصحة والعافية ، كى يستديم خيرها ويستزيد منه ، فهو لا يأخذ شيئا دفعة واحدة ، بل يزيد فى العمران ، وينفق عليه بعض ما يحصل عليه ، ويكفل للرعية الرخاء والاستمتاع بالحياة كى يحفزهم هذا على زيادة الجهد ، لأنهم يعلمون أن لهم من ذلك حظا مكفولا .

فارق فى العقلية . وفارق فى التصور . وفارق فى الطبع . وان سلمنا أن الطمع فى الحالين واحد ، ولكن شتان طمع يعمى البصيرة الواعية ، ويمسك العقل اليقظ بعنانه .

ولقد أبى عمرو أن يكون الأول من هذين الطرازين ، وأصر على أن يكون الثانى أو لا يكون . لأن هذه طبيعته التى جبل عليها وليس له عنها محيص . وواجه العزل على يد عثمان بعد أن كان عمر بن الخطاب قد قلل من سلطان ولايته على مصر ، بأن ولى عبد الله بن سعد بن ابى سرح حكم الصعيد والفيوم ، وجعل اليه جباية الخراج ! فأتم عثمان ما شرع فيه عمر بأن جعل ولاية مصر جامعة لعبد الله بن سعد . وكان ذلك فى أوائل سنة ٢٤ هجرية .

ومما لا ريب فيه ان اثقال عبد الله بن سعد على الناس فى ابتزاز أقصى ما يستطيع جمعه تحت اسم الخراج قد ثقل على أهل الاسكندرية خاصة ، وكانت مفتوحة على بيزنطة عن طريق البحر ومراكب التجارة ، فسرعان ما حدثت مؤامرة عادت على أساسها

أساطيل بيزنطة وجيوشها بقيادة منويل فاحتلت الاسكندرية بغير قتال يذكر ، فلم يكن بها الا ألف رجل من العرب قتلهم الروم جميعا الا نفرا قليلا استطاعوا النجاة • وكان ذلك فى أوائل سنة ٢٥ هجرية أى أواخر سنة ٦٤٥ ميلادية •

وانطلق جيش منويل يفتح مصر السفلى (الوجه البحرى) من جهة الاسكندرية وينهب الأموال والقمح والخمر كأنهم ينتقمون من أهل البلاد الأصليين ••

يقول ابن عبد الحكم أن « أهل مصر من العرب سألوا عثمان أن يعيد عمرو بن العاص الى قيادة الجيش حتى يفرغ من قتال الروم ، فان له معرفة بالحرب وهيبة فى العدو • ففعل ! » •

وكان لقاء الجيشين عند نقيوس ، فاقتتلا قتالا شديدا جدا انتهى بهزيمة الروم وارتدادهم الى الاسكندرية ، واعتصموا بأسوارها• فحلف عمرو بن العاص ان أظفره الله بها ليهدمن أسوارها المنيعة هذه « حتى تكون مثل بيت الزانية يؤتى من كل مكان ! » ويا له من تشبيه يرد على لسان عمرو !

وانتهى الأمر باستيلاء عمرو على الاسكندرية عنوة • واستمر القتل فى أهلها عند بابها الشرقى ، وحرقت أكثر قصورها فى تلك الجهة • الى ان بلغ عمرو وسط المدينة فأمر برفع السيف عن الناس ، وبنى فى ذلك الموضع مسجد الرحمة •• وكان ذلك فى صيف سنة ٦٤٦ ميلادية •

ومن الثابت ان القبط لم يكونوا البا مع الروم على العرب ، وأن البطريق بنيامين اتفق مع عمـرو قبل الالتحـام على ألا يؤازر القبط الروم فى تلك الحرب شريطة أن يفـرق العرب بينهم وبين الروم فى المعاملة ، ويعرفوا لهم ممالأتهم لهم على الروم ...

وبعد فتح الاسـكندرية ذهب القبط من أهالى مصر السـفلى (الدلتا) وشكوا الى عمرو ما لقوه من عسف الروم ونهبهم ، وقالوا انهم كانوا فى ذمة العرب بحق الجزية ، وكان يجب على عمرو أن يدافع عنهم ، ولا يترك الروم ينقضون عليهم ، فاذا عمرو يقول :

ـ يا ليتنى كنت لقيت الروم حين خرجوا من الاسكندرية !
وأمر بتعويض القبط مما فقدوه !

وانها لعمرى لحادثة ذات دلالة كبيرة على فهم عمرو لواجبات الحاكم وحق الرعية من أهل الذمة ، ولها الأثر العظيم فى النفوس اطمئنانا الى عدل مثل هذا الحاكم ، فيجزونه اخلاصا وولاء ...

ولكن كراهة عثمان القديمة لعمرو جعلت تلك الحسنة سوأة فى نظره ، فعزله نهائيا بعد أن رد الروم وأقر العرب فى مصر الى الأبد !

وكان عثمان يعلم غناءه فى الحرب فأحب أن يفيد منه من غير أن يمكنه من شىء من أموالها ، فعرض عليه أن يظل « قائدا عاما

لجيش مصر » على ان يكون عبد الله بن سـعد والى مصر وصاحب خراجها ، فرد عليه عمرو رده الذى وعته حافظة التاريخ .

ـ انى اذن كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها !

ونفض عمـرو يده من مصر غاضبا ، وهو منطو على سخط وضغينة ...

طريقان شتّى

خطتان بعد العزل ، كلتاهما في وسعه .

كان في وسعه أن يلزم مكانته الرفيعة في تأسيس الدولة الاسلامية ، على نحو ما فعل خالد بن الوليد ، وحسبه ما حقق من مجد وسؤدد .

وكان في وسعه أن يداور ويناوىء السلطان الذى عزله ويكيد له ويوقع به .

واختار عمرو الأخرى بدافع من طبعه ، وحافز من طموحه – أم عسانا نقول بحافز من طمعه ؟

لذا لم يؤب الى عاصمة الدولة الكبرى في المدينة حيث المرموقون من صحابة النبى ، ممن لا يلون عملا في أطراف الدولة. ولكنه كان يعرف كراهة عثمان له . وكانت لعثمان في نفسه كراهة يؤجج الغضب والحقد نارها ، بعد أن رأى نفسه يجزى على حسن بلائه في اعادة فتح مصر السفلى (الدلتا) والإسكندرية شر الجزاء.

فأقام بدار له فى فلسطين لا يلم بالمدينة ومكة الا فى الحين بعد الحين لاستطلاع الامور ، أو للحج ...

وقد اختار عمرو مقره هذا بسليقة القائد المطبوع : اختاره على مفرق الطرق بين مصر والشام والحجاز ، يتسقط هناك أخبار المدينة وخليفتها ، وأخبار مصر وما أحدثه عبد الله بن سعد بعده فيها . وأخبار الشام والأطراف .

وهو قد اختار هذا الموقع ايضا ليبث منه الى الرائحين والغادين ما يريد من الايقاع بعزيمة عثمان ، وبخلفه فى مصر عبد الله ابن سعد ، بعيدا كل البعد عن سمع الخليفة وبصره .

هى اذن هدنة على دخن . وتربص الناقم الذى لا ينام عن وتره الا ريثما يتمكن من خصمه ..

وأعانه عثمان على نفسه بما اضطرب من سياسته وسخط الناس عليه . وأعانته الظروف التى زادت الخرق اتساعا حتى لم يبق للسداد موضع . الى أن مر بعمرو فى مرقبه بفلسطين غاد على راحلة أخبره أن الخليفة محصور فى داره بالمدينة . ثم لم يلبث الا قليلا حتى غدا عليه من أخبره أن الخليفة قد لقى مصرعه ، فاذا به يدق صدره فى نشوة الظفر بعدوه :

ـ أنا ابو عبد الله ! اذا نكأت قرحة أدميتها !

وانما ذهب عثمان ضحية الأقاويل وتأليب الناس عليه واستثارة

سخطهم . وما كان أحد أشد تأليبا وتحريضا عليه من أبى عبد الله عمرو بن العاص . حتى لقد قال عن نفسه أنه كان يلقى رعاة الابل والشاء فى طريقه بالصحراء فيحرضهم بلسانه البليغ ويحرج صدورهم على عثمان .

أتراه بعد عثمان انضم الى المنددين معه بعثمان ؟

حاشا ابا عبد الله !

فما كانت المبادىء والمظالم والقضايا السياسية العامة همه الحقيقى، وانما هى مطايا ووسائل لهدم من بينه وبينه خصومة على منفعة شخصية وطموح دنيوى !

وبانتهاء عهد عثمان تنطوى صفحة عثمان وما أثارته من أفانين العداوة والنضال ، ويتربص عمرو ليرى من يلى الأمر بعده ، وهل يفيده أن يعاديه أو يواليه ، بحسب ما يتفق له من المنفعة وجاه الدنيا ... لا بحسب ما يكون من مبادىء ولى الأمر الجديد أو سياسته العامة .

وبرز الى حومة الصراع على السلطان فى الدولة الكبرى رجلان : أحدهما ابن ابى طالب ، والآخر ابن ابى سفيان بن أمية! أحدهما الامام على ، والآخر معاوية ابن آكلة الأكباد يوم أحد . هند بنت عتبة !

والتمس معاوية من على شاكلته من أصحاب الدنيا ، ومن

لا يعنيهم وراء المنافع والجاه شيء ليكونوا معه البا على الأمام علي ، ومعه صفوة أهل العقيدة .

والتمس معاوية أول من التمس من هذا الطراز الذى تعز به صفوفه صاحب الرأى ، أخو الدنيا ، وصاحب الحرب ، وصاحب الدهاء : التمس ابا عبد الله . وكتب اليه فى مقره بفلسطين – عن كثب دمشق – هذا الكتاب الوجيز :

« لقد حبست نفسى عليك حتى تأتينى . أقبل أذاكرك أمورا لا تعدم صلاح مغبتها ان شاء الله ! » .

وهى لغة فى المساومة يعرفها طلاب المنافع تمام المعرفة !

واصطرعت فى نفس عمرو الخطتان : خطة الدين أو خطة العقيدة ، وخطة الدنيا . وجمع اليه ولديه عبد الله التقى الصالح ، ومحمدا الذى يصدق عليه ان الولد سر أبيه . فأشار عليه عبد الله أن ينأى بنفسه عن معركة لن يكون للرابح فيها الا ذيلا وبطانة . وهو شيخ له ماض جليل . فليصن دينه وكرامته معا . واما ابنه محمد فدفعه الى اللحاق بمعاوية ليكون قطبا من أقطاب الدولة بما اجتمع له من أسباب البروز فى معاريض الحرب والرأى وطلب الجاه ...

وقد لخص عمرو الخطتين تلخيصه العملى الذى لا مواربة فيه فقال :

ـ اننى ان اتيت عليا قال انما انت رجل من المسلمين • وان أتيت معاوية يخلطنى بنفسه ويشركنى فى أمره !• وقد نصحنى عبد الله بما فيه الخير لدينى • ونصحنى محمد بما فيه الخير لدنياى !

ونصحه غلامه وردان ـ وكان كمولاه ذا دهاء وفطنة :

ـ تقيم فى بيتك ، فان ظهر أهل الدين عشت عند دينهم • وان ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك !

وهى خطة الأريب الحذر الذى « يمسك العصا من منتصفها » كما يقولون بلغة هذه الأيام ••• ولكن دهاء عمرو بن العاص كان من غير هذا الطراز ، كان من طراز من يقتحمون الأهوال ، ولا يبالون بانكشاف ما عقدوا عليه العزم ان آنسوا فى الاقتحام الظفر •

فلم يكن عمرو اذن يغالط نفسه او يغالط الناس فى أمر الخطة التى اختارها فى تلك الفتنة التى وضعت حكومة العقيدة فى مفرق الطرق • فاما استمرار سياسة المبادىء • واما انتكاسة الى الملك الدنيوى الذى يقوم على العسف والجور واهدار المبادىء فى سبيل استفحال السلطان !

لقد كان يعلم ويجاهر انه انحاز للدنيا ضد الدين ! فهو « بعين مفتوحة » اختار طريقه ، وعن دراية بما اختار ، ومعرفة بما نبذ !•••

وامرءاً وما اختار ...

وصار الأمر بين معاوية وعمـرو مســاومة صريحة ، جبهه عمرو فيها بقوله :

ـ أتظننا نؤازرك على هذا الأمر لأن الحق معك ؟ ومهما قلت فى على فليست لك سابقته ولا نسبه ولا دينه ولا علمه . ولن يرضى الناس عنه بديلا ! وانما هى الدنيا ! فاما اقتطعت لى قطعة من دنياك أو نابذتك !

وما كان لمعاويه أن يرفض هذه القاعدة ، فانه يعلم أنها القاعدة الفعلية التى لن يستقيم له الأمر بدونها ، ولكن الخلاف كان على هذه «القطعة» : ما حجمها ؟ وما وزنها ؟ ما قيمتها ؟

وأصر عمرو على ان تكون له مصر جامعة ، طعمة ما دامت الولاية لمعاوية بن ابى سفيان .. وهى عند عمـرو تعـدل الخلافة ما دام ـ وهو ابن النابغة ـ محدودا عنها ، فما كان الناس ليجعلوه خليفة .

وتلكأ معاويه . وأبى عمرو ان يكون ثمنه وثمن دينه أقل من درة الدولة ، مصر ... طعمة لا يؤدى عنها خراجا ... بل تكون حصيلتها كلها له ... ملكا مستقلا استقلالا ذاتيا ، لا تربطه بالخليفة الا الدعاء له فى المسجد !

ويقول صاحب كتاب « واجب الأدب » ان عمرو بن العاص

قال : « لا أبايعك الا على شرط مكتوب ، ان تكون لى مصر طعمه » فقال : « لك ذلك » فقال معاوية للكاتب ، اكتب : ولا ينقض شرط بيعة ! فقال عمرو : « وهو العارف بألاعيب الدهاة من هذا الطراز » اكتب : ولا تنقض بيعة شرطا !

الى هذا الحد بلغت معرفة عمرو بخلائق النكث والغدر فيمن أقدم على تأييده للخلافة ، وتحت أى شعار ؟ تحت شعار المطالبة بدم عثمان بن عفان بالذات !

ودم عثمان ليس فى عنق الامام على منه شىء ، ولكن فى عنق عمرو بن العاص ـ باعترافه وافتخاره ـ منه اشياء وأشياء ! ولكن دم عثمان عنده مهدر حين يكون هذا الاهدار فى مصلحة عمرو لكسب معركة الطموح الشخصى ، وازالة خصم عن موضع السلطان . دم عثمان هذا بعينه ثمين تقوم الدنيا وتقعد بعد اهداره ويطالب به عمرو من يعلم انه ليس مسئولا عنه ، ما دامت هذه الذريعة نافعة فى اقتطاع قطعة من الدنيا يرنو اليها ...

فكل شىء مباح ما أصاب به مغنما ! والشىء بنفسه أسود حين ينفعه القول بسواده . وابيض حين ينفعه القول ببياضه ... وهو فى حماسته للقولين سواء ! لأنه فى الحالين لا يتحمس الا لما وراء الوسيلة من هدف شخصى ...

وخاض عمرو فى دماء المسلمين ، وأوضع فى الفتنة وتضليل

من استطاع وبرع فى الختل والخداع بلا تحرج ، وقد صار دم عثمان ذريعة كافية لاراقة بحار من الدماء ...

ولم يكن معاوية بالذى يغبن فى مساومته الشهيرة مع عمرو التى انتهت بشرائه ولاءه بمصر جامعة طعمة خالصة له . فعند عمرو المكيدة والرأى وخطة الحرب والبديهة الحاضرة التى لا يتمتع معاوية بمثلها . فمعاوية صاحب اناة واعمال فكر ، وليس بالذى يحسن الحسم اذا فاجأه الأمر واحتاج للبادرة اللماحة كأنها ترى العواقب المطوية فى ظهر الغيب فى مثل ومض البرق الخاطف . وانما هذه مزية عمرو بن العاص التى اشتهر بها ثمانين عاما لم تخذله يوما ..

قاصمة الظهر!

كانت كفة على بن أبى طالب فى القتال هى الراجحة رجحانا مبينا لا مراء • لولا تلك المكيدة البارعة التى تفتقت عنها قريحة ذلك الداهية الأريب ابن النابغة : أن يرفع جند معاوية المصاحف على أسنة الرماح محتكمين الى كتاب الله !

وكان عمرو يعرف تلك العقول المتحمسة المستبدة بمعتقداتها بين أنصار على ، وجلهم من ذلك الطراز المسرف فى تعلقه بكل ما يمت الى الدين بسبب ، فما أخلقهم أن يقع بينهم خلاف مستطير امام تلك البادرة من اعدائهم وقد عاذوا بمعاذ ••• ومن ذا منهم يرفض الاحتكام الى كتاب الله ؟ وكيف يسمحون بقتال رجال حملوا المصاحف على أسنة رماحهم لياذا بكلام الله عز وجل ؟

لقد أوشك منهم فريق أن يقتل الامام لأنه أدرك نفاق اصحاب معاوية وهم أن يواصل القتال •

وكان عمرو يعلم أن لمعاوية عملاء فى جيش على يتظاهرون بنصرته وانما هم بمثابة الطابور الخامس بمصطلح هذه الأيام •

وهؤلاء العمــلاء منهم بعض اقطاب جيش معــاوية ، ومهمتهم أن يشيعوا بين الجند ما يشاء معــاوية من تخرصات ويفــرقون الكلمة المجتمعة ، ويحدثون البلبلة التى تفعل ما لا تفعله الهزيمة بالسلاح فى أزمات الأمم ... فكانت هذه الحيــلة التى ابتدعها ذهن عمــرو بداية الفشل والفرقة فى صفوف انصار على . ومتى وقعت الفرقة تمت لذى الحيلة السيادة ...

فرق تسد !

وهذه الحيلة البارعة هى التى بدأ بها تغير مجرى تاريخ الدولة العربيه ذلك التغير الحاسم : من دولة دين الى دولــة دنيــا . ومن خلافة عقيدة ومبدأ الى ملك واستبداد !

فليست « مصر طعمة » لعمرو ثمنا باهظا لصاحب الرأى الذى أغنى معاوية حيث لم تغن عنه الجيوش والأموال وحدها .

ولم يكن ينتظر ممن تدور سنه حول الثمانين أن يكون من تعزبه الصفوف بصــولة السيف وشجاعة اللقــاء بين الاقران ، بل حسبه الرأى الذى صــدق ابو الطيب من بعد حين قال انه « قبل شجاعة الشجعان : هو أول وهى المحل الثانى ! » .

وقيمة عمرو فى جميع الاحوال والاطوار قيمة القائد المدبر، لا قيمة المحارب المفرد والفارس المعلم !

مصر طعمة لعمرو ، وليكن بعد ذلك ما يكون من أمر العقيدة وآمر المسلمين ....

وأتم عمرو الفتق الذى بدأه حين ندبه معاوية عنه في المهزلة التى عرفت باسم « التحكيم » ، وكان مندوب الامام على ـ الذى فرضه عليه أصحاب السوء ومنهم عملاء معاوية ! ـ ابا موسى الاشعرى .

يقول صاحب « واجب الأدب » :

« وخلا عمرو وأبو موسى الأشعرى، وجرى بينهما كلام اتفقا فيه فى الباطن على خلع على ومعاوية وتقديم عبد الله بن عمر ابن الخطاب ... ذلك ان عمرو بن العاص فكر فيما يخدع به أبا موسى الأشعرى فأظهر له ان المصلحة فىخلع الامامين: على ومعاويه، وتقديم عبد الله بن عمر بن الخطاب . وكانت بنت الأشعرى عند عبدالله بن عمر ، فاستماله الى مراده بذلك ، فمال ! » .

ولست لعمرى أدرى أى الرجلين اثقل وزرا : ابو موسى بما انزلق اليه من الغواية وراء مطمع لوح له به عمرو ، أم عمرو بما استغله من صلاح ابى موسى وما توسمه فيه تحت صلاحه الظاهرى ؟

ففراسة عمرو اطلعته على حقيقة كبرى يؤمن بها النفعيون

جميعا : أن لكل امرئ موطن ضعف ظاهر أو مستتر ، فاعرف موضع ضعف صاحبك واضرب له على الوتر الحساس ينقد لك انقياد المطية الذلول أو الشاة وراء حزمة من العشب الاخضر !..

عمرو مطمعه بغير حدود ، ولكن عقله يقيس الاشياء على طبيعتها الواقعية ، فيدرك أن الخلافة لا سبيل اليها ، وأقصى ما يمكنه الوصول اليه ولاية مصر جامعة طعمة له !

وأبو موسى ليس له من القدرة على طلب الدنيا شيء . فلاذ بالزهد . ولكن حينما لوح له عمرو بأقصى مغانم الدنيا ، وهي الخلافة لزوج ابنته غلب الطمع على الزهد ، وأربى الثمن على الزمة والنزاهة .

وفي عمرو قدرة وألمعية وحيلة .

وفي أبي موسى صلاح وعجز . أو هو كما وصفه معاوية : « رجل طويل اللسان قصير الرأي ! » .

ولا نجد ما يخفف بعض الشيء عن أبي موسى الا القاعدة التي عناها الشاعر حين قال :

اذا كنت لا تدري فتلك مصيبة

وان كنت تدري فالمصيبة اعظم !

وأبو موسى – يقينا – لم يكن يدري .

أما عمرو ، فكان يدري . ثم يدري . ثم يدري !

فنحن مع عمرو دائما بازاء من يرتكب ما يرتكب عن عمد وروية وتدبر • فهو فى كل ما يقدم عليه ذلك المحترف المعترف !

وكان احتكام الحكمين فى « دومة الجندول » • واتفقا على اعلان خلع الرجلين ، كل منهما يخلع صاحبه ، ثم يتركان الأمر فى البداية للناس يختارون ثالثا لم يشترك فى الفتنة ، وحينئذ تظهر الدعوة لعبد الله ابن عمر ، كأنما جاءت بغير تدبير سابق •••

وفى موعد اعلان نتيجة التحكيم ، أصر عمرو بدهائه على تقديم ابى موسى ، يتملق غروره ، متعللا بسبقه الى صحبة النبى ولتقدمه فى السن واشتهاره بالورع • ويقال ان ابن عباس نصح لأبى موسى الأشعرى أن يتأخر ليدع ابن العاص يتكلم أولا • ويجعل لنفسه الكلمة الأخيرة ، ولكن أبا موسى ابى الا التقدم ، متعللا بأنه لايأبى الكرامة الا لئيم ••! سعيدا فيما يبدو بهذا التكريم لمقامه ، فقام وحمد الله وأثنى عليه ثم قال انهما قد رأيا صلاح هذه الأمة فى لم شعثها وترك الفرقة • ولذا اتفقا على خلع على ومعاوية معا ، ورد الأمر الى الأمة تولى من تحب • وأشهد الناس على انه قد خلع عليا ومعاوية كما يخلع خاتمه هذا ••!

ثم قام ابن العاص فحمد الله وأثنى عليه وقال :

ـ ان هذا قد خلع صاحبه وأنا أخلعه مثله ، ولكنى أثبت صاحبى !

فقال أبو موسى :

ـ مالك ! لا وفقك الله ! غدرت وفجرت ! انما مثلك كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث !

فقال له عمرو :

ـ انما مثلك كمثل الحمار يحمل اسفارا ...؟

تهكما منه بغفلته مع اشتغاله بالعلم دون تبصر فى العواقب أو سعة حيلة ...

وهكذا فسد الأمر على على ، وتفرقت كلمة اصحابه ، ورجحت كفة معاوية بعد أن كادت تشيل آخر الدهر ! اتسع له الوقت لراحة رجاله والاستعداد لتجدد القتال ، وقد شدد من عزمهم تثبيت صاحبهم وعزل على على يد صاحبه ، واختلاف انصاره وخروج الخوارج منهم حتى صار بأسهم بينهم شديدا ...

خاتمة المطاف

فى سنة ٣٨ هجرية كانت عودة عمرو الى مصر يفتتحها مرة ثانية ، ــ أم عسانا نقول ثالثة ؟ ــ بعد غيبة عنها اثنتى عشرة سنة ، فهزم جيش والى على ، وهو محمد بن ابى بكر ، وقتل محمد وتولاها عمرو طعمة لا يغرم من خراجها الا أعطية جنده بها • وظل عليها الى ان مات فى يوم عيد الفطر سنة ٤٣ هجرية •

وقبل موته بثلاث سنين نجا من مؤامرة للخوارج لقتله عند خروجه للصلاة : فقد مرض عمرو فأناب عنه صاحب الشرطة « خارجة » فلقى مصرعه ، فقتل القاتل واسمه « البرك » الى عمرو ، وكان لا يعرفه ، فلما سمع سلام الناس عليه بالامارة ، قال :

ــ من هذا ؟

قالوا عمرو ! فقال :

ــ فمن قتلت اذن ؟

قالوا خارجة ! فقال :

ــ والله يا فاسق ما ظننته غيرك !•

فقال عمرو كلمته المشهورة :

ـ أردتني وأراد الله خارجة !

ولم يبرح عمرو مصر منذ فتحها الا لمهمـة التحكيم . وقد استخلف عليها ابنه عبد الله بن عمرو ، ثم رجع الى مصر بعد ذلك وأقام بها الى ان مات . وقد دانت له مصر لا يضطرب فيها أمر : وراح يستثمر ويستزرع وينعم بالدعـة بعد خلو البـال ، وبلوغ الأرب ، وارتفاع السن .

وقيل انه حين حضرته الوفاة اخرج ما جمعه من المال فى تلك الفترة من حكم مصر ، وهو سبعون جرابا كل منها من جلد ثور كامل يسع اردبين من الدنانير الذهبية ، وراح يقول :

ـ من ذا يأخذها بأوزارها !

فأباها ولداه عبد الله ومحمد معا ، وقالا :

ـ مالنا بها حاجة !

وأسرع معاوية يصادرها فور علمه بوفاة عمـرو ، ويضمها عليه ، ثم أبى ولايتها على ابنه ، وولاها أخاه عتبة بن ابى سفيان ..

وان ما يروى عن عمرو عند حلول منيته ليصور طبعه تمام التصوير :

دمعت عيناه فقال له ابنه عبد الله بن عمرو : « يا أبا عبد الله !

اجزع من المـوت يحملك على هذا ؟ قال : « لا . ولـكن ما بعد الموت ! » فذكر له مواطنه التى كانت مع رسول الله صلى الله عليـه وسلم والفتوح التى كانت له بالشام . فلما فرغ عبد الله من ذلك قال عمرو : كنت على طبقات ثلاث لو مت على بعضهن علمت مايقول الناس ... (يعنى الكفر ثم الاسلام ، ثم الجهاد فى سبيل الله فى حروب الردة والفتوح) ثم أصبت بعد رسول الله امارات وكانت فتن وتلبست بسلطان ... وانا أشفق من هذا الطبق .. فلا أدرى لى أم على !

وجعل يقول فى رواية ابن عبد البر :

ـ اللهم انك امرتنى فلم أأتمر ! وزجرتنى فلم أنزجر !

ووضع يده على موضع الغل (من عنقه) وقال :

ـ اللهم لا قوى فانتصر ! ولا برىء فاعتـذر ! ولا مستكبر بل مستغفر ! لا اله الا أنت !

وجعل يرددها حتى مات !

ويروى ابن عبد البر ايضا ـ فى الاستيعاب ـ ان ابن عباس دخل على عمرو بن العاص فى مرضه فسلم عليه وقال :

ـ كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟

قال عمرو :

ـ أصلحت من دنياى قليلا ، وأفسدت من دينى كثيرا .

فلو كان الذى اصلحت هو الذى أفسدت. والذى أفسدت هو الذى أصلحت لفزت ! ولو كان ينفعنى أن أطلب لطلبت. ولو كان ينجينى ان أهرب لهربت ! فصرت كالمنجنيق بين الأرض والسماء ، لا أرقى بيدين ، ولا أهبط برجلين !

وأوصى ابنه عبد الله قائلا :

ـ اذا مت فلا تبكين على باكية . ولا يتبعنى مادح ولا نار . وشدوا على ازرارى فانى مخاصم . وشنوا على التراب شنا . ولا تجعل فى قبرى خشبة ولا حجرا . واذا واريتمونى فاقعدوا عندى قدر نحر جزور وتقطيعه بينكم استأنس بكم !

***

هو يعلم اذن ما فعل . ذلك الدنيوى المحترف المعترف ! فما أقدم عمرو على أمر وهو عن مغبته غافل ، ولكنه لا يبالى ما ظفر منه بالنفع الذى يرجو لنفسه .

أما وقد فرغ من أمر الدنيا وما فيها ، فالقلق على الآخرة يحزبه ويكربه ، ويبكى مقلته انه عاجز لا يملك لنفسه شيئا : « ولو كان ينجينى أن أهرب لهربت ! » فهو يعلم انه لات مهرب ! و « لو كان ينجينى ان أطلب لطلبت ! » فهو يعلم أن طلبه لا يجاب عند من لا تجوز عليه حيلة ، ولا ينفع عنده مكر ، ولا تجدى معه

مساومة ! وعمرو عاش ومات لا يعرف فى تعامله الا الحيلة يحتالها ، أو الخديعة يكيد بها ، أو المساومة على أساس استغلال الاطماع وتقارض المنافع واللبانات !

انه لم يدخل أمرا الا عرف المخرج منه . ولم يبدأ معركة الا أحاط بمصادرها ومواردها ليضمن النصر، ولكنه اليوم : « لا أدرى لى أم على ! »

وليس جزعا من الموت بكى . بل مما بعد الموت ! وانه لحساب هيهات يجد منه مخلصا !

وقد دفنه ابنه عبد الله فى المقطم، وليس له الآن موضع يعرف، لأن ابنه أطاعه فلم يميز لحده بشىء ...

وصدق عبد الله بن الزبير بن العوام حين بلغه موته فقال :

ألم تر أن الدهر أخفت صروفه
على عمرو السهمى تجبى له مصر
فأضحى نبيذا بالعراء ، وضللت
مكائده عنه وأمواله الدثر
ولم يغن عنه جمعه واحتياله
ولا كيده ، لما أتيح له الدهر

نافذة على عصره

أكان عمرو صانع عصره ؟

كلا لا مراء !

بل كان عمرو منتفعا بعصره ! اتخذ التيارات المتضاربة فيه مطية الى اغراضه ومطامعه ، واستطاع بقدراته أن يوجه احداث عصره ـ حينما أمكنته ازمات أمته من ذلك ـ مستخدما قوة اندفاع التيار الغالب كي يحقق ما استباحه لنفسه من اهداف • ومثله يعتبر نافذة صالحة على العصر الذى عاش فيه ، لأنه يجيد تشمم الريح الغالبة فيتجه معها ، فهو لا يروم الا الغنم فى كل ما فعل • وبحاسته تلك يحدد دائما المعسكر الذى تكتب له الغلبة ، فاذا تحولت ريح الكسب تحول معها ، لأنه لا يدين بالولاء الا للمغنم والطموح العريض •

نشأ والكفر غالب ، وظهر محمد بدعوته فلم ينظر اليه الا نظر سواد رجالات مكة الى خارج متمرد • حتى اذا نفدت الحيل وظهر أمر محمد ـ على حد تعبير عمرو ـ ذلك الظهور المنكر

راوغ واعتزل فى الحبشـــة الى ان تمخض الأمر فعـلا عن واقع لا محالة فيه ، فانضم الى لواء الاسلام ، وجاهد وفتح قطرين جليلين هما فلسطين ومصر ، فكان من أكابر القواد والولاة ، لا يرجو فى غير ميدان الشرف والعقيـدة مظهرا لقـدرته ومجلى لهمتـه • لأنه لا مضمار لطموحه العظيم حينئذ سـوى هذا الميـدان • حتى اذا انطوت صفحة عمر ، وتولى عثمان ، ودرت الفتوح الثراء والترف، وغلبت الدنيا على قلوب الناس ، وأخذ الاخلاص الصادق للعقيدة ينزوى ، برز فى معارك الفتنة يبيع مواهبـه لمن يعلم انه يحـارب صدق العقيدة والاخلاص للأمة ، ذلك ان عنده الدنيا التى يرجو قطعة منها ، وأى قطعة ! انها مصر جامعة طعمة له ••! وكان تيـار حب الدنيا قد أمسى السائد عند الناس • وأطلت المطامع سافرة أو تحت قناع لدى ســائرهم ، فنصر لواء الطمع عليمـا بما يصنع ! ومجاهرا بما يعلمه من أمر نفسه شأن العتاة من المتجـرين باللبانات والأطماع ، لأنه لا يبالى بعد المغنم الذى يرضيه أن يحتفظ بحسن القالة فيه !

وتلك صراحة ان يكن ظاهرها محمودا ، فباطنها غير محمود ••• لأنها نابعة عن استهانة بالقيم التى يخـزى النـاس من التنكر لها ، فهو يبرأ من هذا الخزى براءة لا تعـرف الحيـاء ، امعانا فى ازدراء ما تخلى عنه من المحامد حين ترخص فى سبيل مطامعه كل

شيء ... وعلى غير مضض . وفى غير أسف . لا يعوقه عن مطمعه تحرج ولا ندم !

وهكذا تصلح تقلبات سيرة عمرو صورة صحيحة لتقلبات عصره بين الخير والشر ، بين الدنيا والدين ، بين النفاق والاخلاص، بين الصدق والانحلال ...

رجل الدنيا هو بطموحها وطماعتها . يلقى شباكه اينما شام مغنما ، فان كان الأوان أوان خير وصدق ، زاحم بكفايته جهابذة الاخيار الصادقين ، وان كان أوان ضلال صار فى طليعة أهل الضلال يزين لهم كل قبيح غير غافل عما يصنع ولا متستر فيما يقارف . وانما هو طالب غنم لا يبالى الغنم تأثما ولا قالة سوء . فالقيمة كلها عنده للغنم يعليه فوق المآثم والأقاويل ! ...

ابن النابغة هو فى فعاله من حيث يدرى ومن حيث لا يدرى! فما ابقاؤه على القيم فى دنيا أهدرت كل قيمة لأمه المغلوبة على أمرها بعد أن أصابتها الرماح ، فأى جليل بعد هذا يستحق عنده ألا يستباح ؟

انما هى الدنيا ومغانمها ، ومن عزيز ! لا عفة فيها لقادر ، ولا قدرة لعفيف ! وما عف بالأمس عن أمه القادرون عليها ! ففيم اذن تورعه عن جاه يستطيعه فيعوض به الدفين من مهانته وهوان مولده؟

دنيوى هو مطبوع على طلب الدنيا !

وعلى النقيض هو من أولئك النفر الكرام ــ ملح الأرض ــ من الشهداء المطبوعين على الأريحية وافتداء العقائد والمبادىء !

فالشـهيد المطبوع يعف حيث يسـتطيع • والدنيوى المطبوع لا يعف عن ابتذال أو ترخص يستطيعه ، ان كان فى ذلك سبيله الى ما يطمع فيه • فالغاية عنده تبرر الوسيلة •

رجل أهداف هو ، لا رجل مبادىء !

وشتان بين الرجلين !

ولقد طلب ابو عبد الله الدنيا وجعل المبادىء لها وسائل وأسبابا

وبمثل ابى عبدالله صـارت المذاهب عملة زائفـة ومطايا الى لبانات الدنيا وسلطانها ، حتى صدق قول ابى العلاء ــ ومن أسف انه صدق !•

انما هذه المذاهب أسباب　　لجذب الدنيا الى الرؤساء

غفر الله لأبى عبد الله !

•• •• •• •• ••

وسلام على الصادقين ••

٣٠ من يوليو سنة ١٩٦٩　　　　دكتور نظمى لوقا

الفهرس

الموضوع	الصفحة
فاتح فلسطين	١٦٣
فاتح مصر	١٧١
مكتبة الاسكندرية	١٨٧
تأسيس الدولة	١٩٧
أسلوب الحكم	٢٠٧
أفول الحكم	٢١٥
طريقان شتى	٢٢٣
قاصمة الظهر !	٢٣١
خاتمة المطاف	٢٣٧
نافذة على عصره	٢٤٣

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٠/٥١٢٣